

الباب الثالث

الدارس

ذكرت مرارا في الصفحات السابقة أن يونس بن حبيب درس "علوم العربية" أو عنى بها، ولم أحاول أن أحدد واحدا معينا من العلوم. وقد استخدم القدماء أنفسهم عبارة "علم العربية"، فأطلقوها على اللغة والنحو. ولكن هذا التصور - في اعتقادي - قاصر، لا يتسع لكل ما تحدث فيه علماء هذا العصر، من "علماء العربية".

فالعصر الذي عاش فيه يونس عصر مبكر، كان "علماء العربية" يعنون فيه بأشياء متعددة، ولكنها جميعا تستهدف إبراز صورة المجتمع العربي الخالص في جاهليته وإسلامه: لغته، أدبه، حياته، تقاليده، قيمه. وهي جميعا تعتمد على ما بقي بين يديها من آثار هذا المجتمع من أجل بلوغ هدفها، ولم تجد من هذه الآثار غير "الشعر". وهي جميعا تنظر إلى الشعر نظرة واحدة، وتعامله معاملة واحدة، وتسلك طريقة واحدة في استخلاص ما يعينها من حقائق منه.

فقد كان الشعر عندهم^(١): "ديوان العرب، به حفظت الأنساب، وعرفت المآثر، ومنه تعلمت اللغة، وهو حجة فيما أشكل من غريب كتاب الله، وغريب حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وحديث صحابته والتابعين" ولذلك كان الشعر البرهان على صحة مايقال، ويدعم الأخبار التي يرد فيها^(٢).

فلا عجب أن تتداخل اهتمامات هؤلاء الدارسين "للمجتمع العربي" ولا تتضح اختصاصاتهم وضوحا كافيا، يجعلنا نعطي كلا منهم صفة واحدة. فإننا حين نحاول أن نصف ابن الكلبي وأبا عبيدة والمدائني تستبد بنا الحيرة، إذ نجد فيما كتبوا

(١) السيوطي: الزهر ٢ : ٢٢٥ عن أحمد بن فارس. وانظر ابن سلام ٢٢.

(٢) عبيد بن شربة: أخباره ٣١٨، ٣٣٠، ٣٤٩، ٤٠٠، وغيرها.

تاريخنا ولغة وأدبا..

وقد وقع القدماء أنفسهم فى مثل حيرتنا، ولم يتخلصوا منها إلا بابتكار وصف عام مبهم أطلقوه عليهم فهم عندهم "إخباريون"، يجمعون أخبار العرب المتنوعة الاتجاهات والطوابع، والتي لا تجعل من أحدهم مؤرخا خالصا، أو لغويا محضا، أو ناقدا بحتا أو ما إلى ذلك.

وإذا كان يونس بن حبيب لم يتسع الحقل الذى عمل فيه اتساعه عند الرجال الذين ذكرتهم، إلا أن حقله كان على شئ من الاتساع، وكان ما عنى بالاشراف عليه ورعايته فى هذا الحقل على شئ من التنوع.

وإذا كانت اهتمامات هؤلاء الرجال من التداخل بحيث لم يرض القدماء بالفصل بينها، ووضع الحدود المميزة لها، وأطلقوا عليها اسما جامعا، إلا أننى أؤثر ألا أتبع القدماء فى ذلك، وأؤثر محاولة الفصل بين الاتجاهات المختلفة التى سار فيها يونس، تيسيرا على القارئ، وتوضيحا للصورة، وتمهيدا لاعطاء كل جانب قدره من جوانب الرجل، بالرغم من إيمانى العميق بأن جميع هذه الجوانب لرجل واحد: فهى تترابط، بل تتواشج وتتداخل وتمتزج فتنتهى بأن تكون ذلك الرجل.

وأؤثر أن أجمع هذه الجوانب فى فئتين: تلتصق أولاهما بالشعر: ترويه، وتفسره وتنقده؛ فصار الشعر بذلك مادتها وهدفها. وهى لذلك دراسة قد نسميها بالأدبية. أما الفئة الثانية فقد يليق بها اسم الدراسة اللغوية، إذ تستهدف اللغة والنحو. حقا إن هذه الدراسة تعتمد على الشعر أيضا، ولكنه مادتها حسب، أما هدفها فالكشف عن المسالك اللغوية التى سار فيها العرب فى تفاهمهم.

الفصل الأول

الدراسات الأدبية

الرواية

كان كل شيء في حياة يونس بن حبيب والمدينة التي عاش فيها، والعصر الذي كان أحد أبنائه، يدعو إلى البحث عن الشعر العربي، وحفظه، وروايته.

فقد أخذ عن جماعة من الأعراب، كان بعضهم يقول الشعر مثل أبي مهدية، إن لم يكونوا كلهم من ناظميه. وأخذ عن جماعة من العلماء عرفوا برواية الشعر مثل أبي عمرو بن العلاء وأبي الخطاب الأحمش، وضمت حلقتهم جماعة كبيرة من الشعراء، ومن العلماء بالشعر مثل خلف الأحمر، وهو من أشهر رواة الشعر. واتصل بجماعة من الشعراء مستفيدا منهم، مثل رؤبة وذو الرمة والفرزدق. واتصل به جماعة من الشعراء مستفيدين منه مثل مروان بن أبي حفصة.

لا عجب إذن أن يستجيب يونس لهذه الدعوة، ويعنى برواية الشعر. فأخذ الشعر القديم عن شيوخه، قال سيبويه^(١): "قال عمرو بن كلثوم:

صددت الكأس عنا أم عمرو وكان الكأس مجراها اليمين

أي على ذات اليمين. حدثنا بذلك يونس عن أبي عمرو، وهو رأيه". وأخذه أيضا عن التقي منهم من العرب. قال سيبويه^(٢): "زعم يونس أن العرب تنشد هذا

(١) الكتاب ١ : ٢٠١ .

(٢) الكتاب ١ : ١٣١ . وانظر ٧٧ ، ١٤٠ ، ٢٥٠ .

البيت لهدبة بن خشرم:

فإن تك في أموالنا لا نضق بها ذراعا، وإن صبر فنصبر للصبر"

وقال أيضا^(١): "زعم يونس أن ناسا من العرب يقولون:

أنصب للمنية تعزيهم رجالى أم هم درج السيول"

أما الشعر المعاصر له فأخذه من أفواه ناظميه. قال سيبويه^(٢): "يقوى ذلك أن يونس وعيسى جميعا زعما أن رؤبة كان ينشد هذا البيت نصبا:

* فيها ازدهاف أيما ازدهاف *

وقال أيضا^(٣): "زعم يونس أنه سمع الفرزدق ينشد:

كم عمة لك يا جرير وخالة فدعاء قد حلبت على عشارى

شغارة تقذ الفصيل برجلها فطارة لقوادم الأبكار

وتدلنا الأبيات الباقية لدينا من رواية يونس أنه عنى بعصور الاستشهاد اللغوى كلها، وبالفضحاء من الشعراء على اختلاف مراتبهم واتجاهاتهم. فقد روى أبياتا من الشعر الجاهلى، بعضها من نظم كبار شعراء الجاهلية كأصحاب المعلقات ومن فى مرتبتهم، مثل امرئ القيس وعمرو بن كلثوم والنابعة الذبياني والأعشى وعبيد بن الأبرص. قال محمد بن سلام الجمحى^(٤): "سألت يونس عن قول الله

(١) الكتاب ١ : ٢٠٧ . وانظر ٢٤ . والبيت لابراهيم بن هرمة. انظر ٢٠٦ .

(٢) الكتاب ١ : ١٨٢ . وانظر ١٦١ .

(٣) الكتاب ١ : ٢٥٣ .

(٤) المفضل بن سلمة: الفاخر ١٦٤ .

تعالى ﴿إنما أنت من المسحورين﴾ فقال: من المعلنين، وأنشد لامرئ القيس:

عصافير وذبان ودود ونسحر بالطعام وبالشراب"

وروى أيضا لجماعة من أقدم من نعرف من شعراء الجاهلية مثل المستورغرين ربيعة، والصعاليك مثل عروة بن الورد، وسكان الحضرة مثل عدى بن زيد العبدي، والنساء مثل الحرتق أخت طرفة بن العبد. قال سيويه^(١): "قال عروة الصعاليك:

سقونى الخمر ثم تكنفونى عداة الله من كذب وزور

إنما شتمهم بشيء قد استقر عند المخاطبين. وقال النابغة:

لعمري وما عمري على بهين لقد نطقت بطلا على الأقارع

أقارع عوف لا أحاول غيرها وجوه قرود تبتغي من تجادع

وزعم يونس أنك - إن شئت - رفعت البيتين جميعا على الابتداء، تضمرفى

نفسك شيئا لو أظهرته لم يكن ما بعده إلا رفعا".

ويبلغ الشعراء الاسلاميون الذين روى لهم أشعارا ضعف الجاهليين، ويزداد

العدد إذا أضفنا اليهم المخضرمين. وقد روى للفحول منهم مثل لبيد والخطيئة

والنابغة الجعدي وأبي ذؤيب الهذلي وجريير والأخطل وكثير والراعى وذى الرمة

والعجاج وأبي النجم، فضلا عن رؤبة والفرزدق اللذين أولاهما من العناية ما لم يوليه

لأحد، واعتمد على شعرهما اعتمادا لا يماثله اعتماداه على شعر غيرهما. قال

سيويه: "أنشدنا يونس لجريير:

إياك أنت وعبد المسيح أن تقربا قبلة المسجد

(١) الكتاب ١ : ٢٥٢.

أنشدناه منصوبا وزعم أن العرب كذا تنشده"^(١).

وروى لغير الفحول من الإسلاميين أيضا، دون أن يقتصر على فئة معينة منهم. فقد روى لشعراء الغزل مثل جميل بثينة؛ وشعراء الهجاء مثل اللعين المنقري، ويزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميري، وجرير بن خرقاء العجلي؛ وشعراء المديح مثل نصيب وعبد الله بن همام السلولي؛ وشعراء العواطف الشخصية مثل هدبة ابن الحشرم وأبي الأسود الدؤلي؛ وغيرهم من الخاملين مثل الجارود بن أبي سبرة وابن رياح الشارزنجي وأبي داود الرؤاسي.

قال سيويه^(٢): "قال الهدلي:

فقلت: تحمل فوق طوقك إنها مطبعة من يأتها لا يضرها
هكذا أنشدناه يونس".

وامتد نطاق من روى يونس شعرهم واستشهد بهم حتى شمل بعض مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، مثل إبراهيم بن هرمة، الذي عدّه النحويون ساقّة الشعراء وآخر من يستشهد بهم. أما العباسيون الخالصون الذين سموا بالمولدين فلم أجد يونس يروي لهم شيئا، بالرغم من اتصال بعضهم به كمروان بن أبي حفصة.

وإذا نظرنا في قائمة الشعراء الذين روى لهم يونس تجلت لنا بعض الظواهر التي نستطيع أن نرصدها على النحو التالي:

كان القسط الأكبر من عناية الرجل موجهها إلى الشعراء الإسلاميين، وخاصة من عاش منهم في العهد الأموي. فعدد الجاهليين الخالص الذين روى لهم قليل جدا،

(١) الكتاب ١ : ١٤٠.

(٢) الكتاب ١ : ٤٣٨.

ولا يخرج عن نطاق الفحول غير هني بن أحمـر الكـناني والخرنق والمستوغر.
والمخضرمون روى لأكابـرهم ما عدا كعب بن زهير وحسان بن ثابت اللذين لم أجد
شعرا هما عنده. فإذا انتقلنا إلى العصر الأموي لم نكد نجد فحلا لم يرو له شيئا.

وبرز بين الأمويين رؤية والفرزدق خاصة. أما رؤية فقد كثر حديثي عنه ولا
أحب أن أعود إلى ذلك. وأما الفرزدق فقد بلغ من اهتمام يونس به أن اضطر إلى
الاهتمام بجماعة من الشعراء ما كان يابيه لهم لولاه. فقد كانوا على اتصال ما
بالفرزدق، أو وقعت بينهم أحداث مشتركة، أرغمت الرجل على رواية بعض
أشعارهم.

فلم أجد عنده لجرير بن خرقاء العجلى إلا ما رد به على الفرزدق. قال ابن
سلام^(١): "روى عن يونس أن الفرزدق لما قال:

تصرم منى ود بكر بن وائل وما خلت دهري ودهم يتصرم
قوارص تأتيني فيحتقرونها وقد يملأ القطر الإناء فيفعم

- وكان قد نزل عليهم حين هرب من ابن زياد - فقال جرير بن خرقاء يجيبه:

لقد بوأتك الدار بكر بن وائل وردت لك الأحشاء إذ أنت مجرم
ليالي تمنى أن تكون حمامة بمكة يغشاها الستار المحرم
فان تنأ عنا لا تضرنا وإن تعد تجدنا على العهد الذي كنت تعلم"

ولم أجد لنصيب غير الأبيات التي قالها للخليفة الأموي حين غضب من
الفرزدق. قال المرتضى^(٢): "أبو عبيدة عن يونس قال: دخل الفرزدق على سليمان

(١) المرتضى: الأمل ١ : ٣٠٤.

(٢) الأمل ١ : ٦٠.

ابن عبد الملك، وعنده نصيب الشاعر. فقال له سليمان: أنشدني! فأنشده.. (أبياتا في الفخر) فاسود وجه سليمان وغازه فعله، وكان يظن أنه ينشده مديحا له. فلما رأى نصيب ذلك قال: ألا أنشدك؟ فأنشده:

أقول لركب قافلين لقيتهم قفاذات أوшал ومولاك قارب:

قفوا خبروني عن سليمان إننى لمعروفه من أهل ودأن طالب
فعاوجوا فأتوا بالذى أنت أهله ولو سكتوا أننت عليك الحقائب

فقال له سليمان: أنت أشهر أهل جلدتك. وفى بعض الأخبار أن الفرزدق قال ذلك فى نصيب حين سأله عنه سليمان".

بل بلغ من فرط عنايته بالفرزدق أن عنى بمن حاول أن يكون على صلة به ولم يفلح. روى ابن سلام^(١): "قال اللعين:

سأحكم بين كلب بنى كليب وبين القين قين بنى عقال
فإن الكلب مطعمه خبيث وإن القين يعمل فى سفال
وقد حسر البعث وأقعدته لثيمات المناخر والسبال
ويترك جده الخطفى جريـر ويندب حاجبا وبنى عقال

قال ابن سلام: وسمعت يونس يقول: فلم يلتفتا لفته، وأراد أن يذكره فيرفعه ذلك، فقال:

فما بقيا على تركمانسى ولكن خفتما صرد النبال".

وإذا نظرنا فى الأشعار الباقية بين أيدينا من رواية يونس نجد أنها تمنحنا أسبابا

(١) الطبقات ٣٤٢.

متعددة حدثت به إلى العناية بها. وأول هذه الأسباب الاستشهاد بها في ميدانى النحو واللغة. فقد كان كثير من هذه الأشعار يضم ظواهر لغوية خاصة لفتت نظر ذلك الرجل المعنى يرصد هذه الظواهر، فعنى بها وتتبعها ومحصها. وعندما أحس سيبويه منه ذلك اتخذ منه أحد مراجعه فى الشواهد. قال البغدادي^(١): "فاعتمد [سيبويه] على شيوخه، ونسب الانشاد إليهم، فيقول: أنشدنا، يعنى الخليل؛ ويقول: أنشدنا يونس..". ومثال ذلك ما رواه سيبويه قال^(٢): "نظير هذا النصب من الشعر قول الخرنق:

لا يبعدن قومي الذين هم سم العداة وآفة الجزر
النازلين بكل معترك والطيون معاقد الأرز

فرفع الطيين .. وزعم يونس أن من العرب من يقول:

النازلون بكل معترك والطيون

فهذا مثل والصابرين فى قوله تعالى: "والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس".

وكان سبب عنايته ببعض الأشعار اتصالها ببعض الأخبار التى يعنى بها، مؤيدة لها، ومتممة لوقائعها، وموضحة لأحداثها. وإذ كان يونس شديد الاهتمام بالأخبار كان غير عجيب أن يعنى بهذه الأشعار وفق ما شاع عنه عند العرب من مناهج وتصورات. مثال ذلك ما رواه الجاحظ عن أبى عبيدة قال^(٣): "حدثنى يونس قال:

(١) خزنة الأدب ١ : ٣٣٣.

(٢) الكتاب ١ : ٢٤٩.

(٣) الحيوان ٧ : ٨٣.

لما بنى فيل مولى زياد داره وحمّاه بالسبايجة عمل طعاما لأصحاب زياد، ودعاهم إلى داره وأدخلهم حمّاه. فلما خرجوا منه غداهم ثم ركب وغبر فى وجوههم. فقال أبو الأسود الدئلي:

لعمر أبيك ما حمّام كسرى على الثلثين من حمّام فيل
وقال الجارود بن أبي سبرة:

وما إرقاصنا خلف الموالى كسنتنا على عهد الرسول"
ونستطيع أن نتبين فئة ثالثة من الشعر كان الإعجاب هو الذى ساق يونس إلى حفظها وروايتها. ومثالها ما حكاه ابن خلكان^(١): "قال يونس: تقول العرب: فرقة الأحباب سقم الألباب. وأنشد:

شيطان لربكت الدماء عليهما عيناى حتى يؤذنا بذهاب
لم يبلغا المعشار من حقيهما شرح الشباب وفرقة الأحباب"

ويتجلى لنا فى هذه الأشعار أيضا أن أكثرها أبيات مفردة، أو بيتان. ولا نعجب كثيرا لغلبة هذه الظاهرة على ما أورده سيبويه منها، لأنه فعل ذلك إذ عدها شواهد. ولم يعن النحويون فى شواهدهم عادة إلا بالبيت الذى يمثل القاعدة النحوية التى يتحدثون عنها. ونستدل من هذا أن الاقتصار على البيت والاثنين ربما كان من يونس نفسه فى أثناء علاجه النحو، وربما كان من سيبويه الذى اختار من رواية يونس ما فيه الشاهد النحوى، وإن كنت أميل إلى الظن الأول.

وأما مرويات يونس فى غير كتاب سيبويه فلا تقتصر على الأبيات، بل

(١) ٢ : ٤١٧ . ابن العماد: شذرات الذهب ١ : ٣٠١ .

تطول وتصير مقطوعات، وخاصة في طبقات فحول الشعراء لابن سلام. روى عن
يونس مرة (١): "أن يزيد بن ربيعة بن مفرغ كان رجلا من محصب، وكان عديدا
لبنى أسيد بن أبي العيص بن أمية، وكان منزله بالبصرة، وكان شريرا هجاء للناس.
فصحب عباد بن زياد - وعباد يومئذ على سجستان، عاملا لعبيد الله بن زياد،
وعبيد الله يومئذ على البصرة لمعاوية - فهجا ابن مفرغ عبادا، فبلغه. وكان على
ابن مفرغ دين، فاستعدى عليه. فباع عباد ماله في دينه وقضى الغرماء. وكان فيما
بيع عليه غلام يقال له برد، وجارية يقال لها أراكة، فقال:

أصرمت جلك من أمامه	من بعد أيام برامه
تركى سعيدا ذا الندى	والبيت ترفعه الدعامة
وتبعته عبد بنى علا	ج، تلك أشراط القيامة
جاءت به حبشية	سكاء تحسبها نعامه
من نسوة سود الوجوه	ه ترى عليها الدمامه
وشريت برردا، ليتنى	من بعد برد كنت هامه
يا هامة تدعو الصدى	بين المشقر واليمامه
العبد يقرع بالعصا	والحر تكفيه الملامه
والريح تكفى شجوها	والبرق يلمع فى الغمامه
ورمقتها فوجتها	كالضلع ليس له استقامه

وأمثال هذه المقطوعة، وما يقل عنها، وما يزيد، غير قليل فى الطبقات.
ونشر فى بعضها أن يونس ربما روى القصيدة كلها، فاقصر ابن سلام على ما

(١) الطبقات ٥٥٤.

أورده منها. ولعل الخبر التالي يبين أن يونس روى بعض القصائد المفرطة في الطول. قال السيوطي^(١): "زعم يونس أن العجاج أشعر أهل الرجز والقصيد. وقال: إنما هو كلام، وأجودهم كلاما أشعرهم، والعجاج ليس فى شعره شىء يستطيع أحد أن يقول: لو كان مكانه غيره لكان أجود. وذكر أنه صنع أرجوزته:

* قد جبر الدين الاله فجبر *

فى نحو من مئتى بيت، وهى موقوفة مقيدة، ولو أطلقت قوافيها وساعد فيها الوزن لكانت منصوبة كلها".

وكثرة الأخبار بين رؤبة والفرزدق ويونس، وتحدثه عنهما، واستشهاده بشعرهما، وحكايته أخبارهما، تجعلنى أميل إلى أنه كان يحفظ كثيرا من شعرهما إن لم أقل ديوانيهما. ولكننى لم أعثر فى أى من المراجع التى أفدت منها على أنه روى ديوانيهما، بل لم أعثر على من ذكر أنه روى ديوان شاعر جاهلى أو إسلامى. ويبدو لى أن يونس لم يكن ممن عنوا برواية الشعر لذاته، وإنما كان اهتمامه به من أجل ما يحتوى عليه من لغة ونحو وأخبار، فروى منه ما اتصل باهتماماته هذه، ولم يأبه لرواية ديوان كامل لشاعر مثل أستاذه أبى عمرو بن العلاء أو تلاميذه مثل الأصمعى وأبى عبيدة وخلف الأحمر. ولكن هذا لم يمنعه أن يكون له نظر فى الشعر يسر له نقد بعض الشعراء كزهير بن أبى سلمى والنابعة الجمعدى وعبيد الله بن قيس الرقيات.

وقد أثار بعض ما رواه يونس عواصف من النقد، والخصومة بين الدارمين والأدباء. فقد روى محمد بن سلام^(٢) عن يونس الأبيات التالية التى نسبها إلى

(١) الزهر ٢ : ٤٨٤.

(٢) الطبقات ٢٩.

فجعلها يونس لعبيد، وعلى ذلك كان اجتماعنا فلما قدم المفضل صرفها إلى أوس ابن حجر".

ويتضح من قول ابن سلام أن يونس لم ينفرد بقوله بل كان تابعا فيه لجماعة أهل البصرة، فلما جاء المفضل الكوفى صرفهم عن رأيهم. ويبدو أن غلبة رأى المفضل كانت تامة بحيث أوقعت بعض العلماء فى الخطأ، إذ عُمم هذا الرأى وشمل به يونس نفسه. قيل فى ذيل الأمانى والنوادر^(١): "محمد بن سلام قال: سمعت يونس النحوى يقول فى قوله جل وعلا: ﴿فاليوم ننجيك ببدنك﴾ ننجيك: نجعلك على نجوة من الأرض، وهى المكان المرتفع. ببدنك: بدرعك. وأنشد لأوس بن حجر: دان مسف".

ونسب ميمية للنابعة الجعدى فخالفه تلميذه أبو عبيدة. قال ابن سلام^(٢): "قلت ليونس: كيف تقرأ: "وجنتك من سبأ نبأ يقين" فقال: قال الجعدى، وهو أفصح العرب:

من سبأ الحاضرين —أرب إذ بينون من دون سيله العرما —
— وهو على قراءة أبى عمرو ويونس — فجعل يونس القصيدة للجعدى. ثم أتينا خلفا الأحمر فسألناه فقال: للنابعة، وقد يقال لأمية". ويبدو من العبارة الأخيرة أن خلفا يرجح قول أستاذه يونس.

وفطن يونس إلى أن من أسباب الاختلاف فى نسبة بعض الأبيات ما تعوده الشعراء من التمثل فى قصائدهم ببعض أبيات السابقين عليهم دون أن يقصدوا إلى

(١) ١٨ .

(٢) الطبقات ١٠٦ .

سرقتهأ أو إخفاء أمرها على القارئ. قال ابن سلام^(١): "أخبرنى خلف أنه سمع أهل البادية من بنى سعد يروون بيت النابغة للزبرقان بن بدر. فمن رواه للنابغة قال:

تعدو الذئاب على من لا كلاب له وتتقى مريض المستنفر الحامى
ومن رواه للزبرقان بن بدر قال:

إن الذئاب ترى من لا كلاب له وتحمى مريض المستنفر الحامى
... وسألت يونس عن البيت فقال: هو للنابغة، أظن الزبرقان استزاده فى شعره كالمثمل حين جاء موضعه لا مجتلبا له".

وإذا كانت بعض مرويات يونس أثارت خلافا كبيرا، فإن بعض أحكامه المتصلة بالرواية أثارت خلافات أخرى، بل ضلل بعضها العلماء آمادا طويلة. فقد كان أحد الذين أطلقوا القول أن لبيد بن ربيعة العامرى سكت عن الشعر بعد الاسلام. قال ابن خلكان^(٢): "قال يونس: لم يقل لبيد فى الاسلام سوى بيت واحد، هو:

الحمد لله إذ لم يأتنى أجلسى حتى ليست من الاسلام سربالا"

ويدور حول هذا القول خلاف قديم وحديث. أما الخلاف القديم فيتناول البيت الواحد الذى قاله لبيد فى الاسلام، وهل هو ما رواه يونس أو غيره؛ والبيت الذى رواه يونس: هل هو للبيد حقا أو لغيره. فقد خالف بعض الرواة يونس^(٣)،

(١) الطبقات ٤٨.

(٢) الوفيات ٢ : ٤١٧.

(٣) انظر النقاش الطويل لقول يونس عند يحيى الجبورى فى كتابيه: لبيد بن ربيعة العامرى ٤٩ - ٥٧ وشعر المخضرمين ٢٣٣.

وقالوا إن البيت الذى قاله لييد فى الإسلام هو:

ما عاتب المرء الكريم كنفسه
والمرء يصلحه المجلس الصالح
وخالفه بعضهم الآخر فذكر أن البيت الأول ليس من نظم لييد بل من نظم
قردة بن نفائة السلولى.

ويدور النقاش الحديث حول صحة قول يونس كله. فقد وجد المحدثون فى
شعر لييد ما شككهم فيه. وجدوا فيه ماقاله حين بلغ ٧٧ سنة:

قامت تشكى إلى النفس مجهشة
وقد حملتك سبعا بعد سبعين
فان تزايدى ثلاثا تبلغى أملا
وفى الثلاث وفاء للثمانين
وما قاله حين بلغ ٩٠ سنة:

كأنى وقد جاوزت تسعين حجة
خلعت بها عن مكبى ردايىسا
وما قاله حين بلغ ١١٠ سنة:

أليس فى مئة قد عاشها رجلا
وفى تكامل عشر بعدها عمر؟
على حين أنه قضى فى الجاهلية ٦٠ سنة من عمره فقط. ووجدوا فيه ما قاله
أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجوه أن يدعو الله لانزال الغيث، وما رثى
به أخاه أربد بعد إسلامه. ووجدوا فيه كثيرا من المعانى الاسلامية التى استقاها من
القرآن والحديث والجو الاسلامى، مثل قوله:

إن تقوى ربنا خير نفل
وأذن الله ريشى وعجل
أحمد الله فلانده
بيديه الخير ما شاء فعل
من هده سبل الخير اهتدى
ناعم البال ومن شاء أضل

وقوله:

رأيت التقى والحمد خير تجارة
رباحا إذا ما المرء أصبح ثاقلا
وغيرهما، مما يؤكد خطأ قول يونس.

كذلك أطلق يونس القول في ثلاثة من الخلفاء الراشدين. قال أبو عبيدة^(١):
زعم يونس أن عليا وعمر وعثمان رضى الله عنهم لم يقولوا شعرا إلا أن يقولوا بيتا.
ويضعنا هذا القول أمام مشكلة عويصة اختلف فيها العلماء، فكان منهم من
أيد يونس تأييدا كاملا أو فى بعض قوله مثل حكمه على عثمان. وكان منهم من
اختلف معه مثل ابن رشيح الذى قال^(٢): "فهؤلاء الخلفاء الأربعة رضوان الله عليهم
ما منهم إلا من قال الشعر"، وقال عن عمر^(٣): "كان من أنقد أهل زمانه للشعر
وأفذهم فيه معرفة"، وقال عن علي^(٤): "كان مجودا". وروى لهم عدة قصائد
وأبيات. وبين أيدي العلماء الآن ديوان كامل منسوب إلى علي. فإذا كان الشك
يحوط قدرا، يختلف فيه العلماء، من قصائده، فإنه لا يرقى إليه جملة.

ووجدت ليونس بعض الأقوال التى تدل على أنه نظر فى الرواية والرواة،
ورصد بعض الظواهر التى ظهرت له.

أما الرواية فيبدو أنه كان مؤمنا بما قال أستاذه أبو عمرو بن العلاء عن كثرة
الشعر العربى فى الجاهلية، وكثرة ما ضاع منه فى أثناء انتقاله إليهم. فقد كان هو

(١) مجاز القرآن ٢ : ١٥٩ (الحواشى).

(٢) العمدة ٣٥. وانظر كتاب الاسلام والشعر ليحيى الجبورى ٧٩-١٢٨.

(٣) العمدة ٣٣.

(٤) العمدة ٣٤.

الذى نقل عن أبى عمرو قوله^(١): "ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير". وكان هذا القول واحدا من الأقوال التى نشرت بين الناس تصور سهولة نظم الشعر على العربى، حتى كاد كل عربى يكون شاعرا عندهم.

ونقل أبو عبيدة عن أستاذه يونس أن أبأ عمرو اعترف بانتحال أحد أبيات الشعر. قال أبو عبيدة^(٢): قال يونس: قال أبو عمرو بن العلاء: أنا الذى زدت بيت الأعرشى فى شعره - يعنى:

وأنكرتنى وما كان الذى نكـرت من الحوادث إلا الشيب والصلعا

فسار فى الناس وذهب فأتوب إلى الله منه. وقال: لم أزد فى أشعار العرب غيره".

ولكننى لا أقطع بصحة هذا القول. فقد روى تلميذ آخر ليونس ما يشكك فى صدوره عنه، ويجعلنا نميل إلى أن بعض تلاميذه وضع هذا القول على فمه إنقاصا من قدر أبى عمرو. ويزداد الشك بنا حين نذكر أن أبأ عبيدة كان شعوبيا يتغنى "بمثالب العرب"، ويحاول أن ينتقص من كبارهم. يستطرد ابن الأنبارى بعد إيراده رواية أبى عبيدة فيقول: "وقال محمد بن سلام الجمحى: وحدثنى جوان قال: قال يونس: قال أبو عمرو: وأنا الذى قلت هذا البيت:

وأنكرتنى . .

قال: فقلت يونس فسألته: من الذى يقول هذا البيت؟ فقال: الأعرشى .

فقلت: ما قول أبى عمرو فيه؟ فقال: قال أبو عمرو: وما بقى بعد الشيب والصلع؟

(١) ابن سلام: الطبقات ٢٣. ابن جنى: الخصائص ١ : ٣٨٦. ابن الأنبارى النزهة ١٧.

(٢) مجاز القرآن ١ : ٢٩٣. ابن الأنبارى: شرحه للمفضليات ٥٦٥.

كان ينبغي أن يتأني لأن يقول الذى نكرت الشيب والصلع". فيونس ينسب البيت صراحة للأعشى، ولا يعرف قولاً لأبى عمرو فيه غير نقد معناه.

وتصدى يونس بن حبيب لاثنين من رواة الشعر بالنقد والتكذيب. أما أولهما فبزرع بن محمد النحوى الكوفى، الذى هاجمه هجوما مقنعاً، إذ قال عنه^(١): "إن لم يكن بزرج أروى الناس فهو أكذب الناس". ويبدو أن كثيراً من العلماء يوافقون يونس فى رأيه فى الرجل. قال المازنى^(٢): "روى بزرج بن محمد العروضى شعراً لامرئ القيس. فقال له جناد: عمن رويت هذا؟ قال: عنى، وحسبك بى. فقال له جناد: من هذا أتيت يا غافل".

وأما الثانى فالراوية الذى واجهته السهام من كل علماء البصرة، وهو حماد الراوية. ولم يتقنع يونس فى مهاجمته بل رماه فى قسوة وعنف. قال ابن سلام^(٣): "سمعت يونس يقول: العجب لمن يأخذ عن حماد، كان يكذب ويلحن ويكسر" وزاد غير ابن سلام^(٤): "ويصحف". وذكر أبو عبيدة أن يونس قال أيضاً^(٥): "قدم حماد البصرة على بلال بن أبى بردة، وهو عليها، فقال: ما أطرفتنى شيئاً. فعاد إليه فأنشده القصيدة التى فى شعر الحطيئة مديح أبى موسى. فقال: ويحك! يمدح الحطيئة أبا موسى لا أعلم به، وأنا أروى شعر الحطيئة؟! ولكن دعها تذهب فى الناس".

ولكن هذه الأقوال لقيت معارضة من كثيرين، كشف عنها الدكتور ناصر

(١) ابن النديم : الفهرست ٧٢.

(٢) ياقوت : معجم الأدباء ٧ : ٧٣.

(٣) الطبقات ٤١.

(٤) أبو الطيب: المراتب ٧٣. الجاحظ : رسائله ٢ : ٢٦٦. السيوطى: الزهر ١ : ١٧٦.

(٥) ابن سلام: الطبقات ٤١. السيوطى: الزهر ١ : ١٧٦.

الدين الأسد^(١) في درسه لنظرية الانتحال في الشعر الجاهلي. فقد أبان أن القصيدة التي حكم عليها يونس بالانتحال رواها محمد بن حبيب عن ابن الأعرابي وأبى عمرو الشيباني معا^(٢)، وأثبتها المدائني البصري، وذكر^(٣) "أن الحطيئة قال هذه القصيدة في أبى موسى، وأنها صحيحة، قالها فيه وقد جمع جيشا للغزو". وكشف عما في القول الأول من دغل، على ضوء التناقض بينه وبين أقوال العلماء الآخرين. فقد قيل إن المفضل الضبي قال عنه^(٤): "رجل عالم بلغات العرب وأشعارها، ومذاهب الشعراء ومعانيهم، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله في شعره.. فتختلط أشعار القدماء، ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد" وقيل إنه^(٥) كان "من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها وأشعارها وأنسابها ولغاتها". فأى هذه الأقوال يصدق على الرجل!؟

ونخلص من هذا بأن يونس بن حبيب لم يكن الرجل الذي يمكن أن يلقب بالراوي، أريد لم يكن الرجل الذي جعل همه البحث عن الشعر والسمي وراءه وحفظه وروايته لذاته دون هدف وراءه. فلم تتعد روايته الأبيات التي تشهد لظواهر لغوية ونحوية، والمقطوعات التي تتصل ببعض الأخبار التي عنى بها، والقصائد التي اتصل بمن نظمها. ولم يتجاوز جهده إلى رواية مجموعة من الأشعار أو ديوان لشاعر. وقد أوقعه ذلك في بعض المشاكل في نسبة بعض الأبيات التي عزاها إلى

(١) مصادر الشعر الجاهلي ٤٣٨ - ٤٥٠.

(٢) ديوان الحطيئة ٣٤.

(٣) الأغاني ٢ : ١٧٦.

(٤) الأغاني ٦ : ٨٩.

(٥) ياقوت: معجم الأدباء ٢٥٨ : ١٠.

أناس فلم يتابعه الناس وآثروا قول غيره كالمفضل. وأوقعه فى بعض الأخطاء التى شاعت وضللت العلماء أمدا طويلا. وأوقعه أيضا فى بعض الخطأ فى الحكم على الرواة الذين نقد روايتهم دون أن يكون متبحرا مثلهم فيها أو نظيرا لهم فى العناية بها.

ويؤدى بنا ذلك إلى عدم تصديق ياقوت^(١) حين يطرى يونس فى حفظ الأشعار وروايتها فيعلن أنه كان: "حافظا لأشعارهم". فإن ما بين أيدينا من آثاره لا يكفى لأن نقرنه بمن نعرفه من رواة الشعر.

ونخلص أيضا إلى أنه يجب الاحتراس فيما ينقل عن الرجل، إذ يبدو أن بعض تلاميذه نسبوا إليه ما لم يقله هو فى نفوسهم الضعيفة الحاقدة.

الأخبار

يروى الرواة أن عمر بن الخطاب قال^(٢): "الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أعلم منه"، وأن معاوية بن أبى سفيان قال^(٣): "الشعر ديوان العرب والدليل على أحاديثها وأفعالها".

إذن كان الشعر - فى خلد العرب - فى القرن الأول السجل الذى يحفظ معارف العرب، وأقوالهم وأعمالهم؛ وأنه لم يقاربه سجل آخر فى هذا العمل؛ وأن من سعى أن يعرف شيئا عنهم فعليه بشعرهم.

وإذا كانت الأقوال التى عثرنا عليها من القرن الأول وتعرض هذه الصورة

(١) معجم الأدباء ٢٠: ٦٥.

(٢) ابن رشيقي: العمدة ١: ٢٧.

(٣) أخبار عبيد بن شربة ٣٥٢.

للشعر قليلة ومجملة، فإنها صارت في القرن الثالث كثيرة، ومفصلة، بحيث لا تدع ريباً لمرتاب. قال الجاحظ^(١): "فكل أمة تعتمد في استبقاء مآثرها، وتحصين مناقبها، على ضرب من الضروب، وشكل من الأشكال. وكانت العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون والكلام المقفى، وكان ذلك ديوانها". وقال ابن قتيبة^(٢) عن الشعر: ان الله جعله لعلوم العرب مستودعاً، ولآدابها حافظاً، ولأنسابها مقيداً، ولأخبارها ديواناً لا يرث على الدهر ولا يبید على مر الزمان.

كانت صورة الشعر على هذه الهيئة في القرن السابق على يونس، والقرن اللاحق عليه، صورة واحدة لا تزيدها الأيام إلا ثباتاً وبروزاً وجلاءً تفاصيل. فلا عجب أن يروى يونس عن أستاذه القول الذي رواه وأوردته في الفصل السابق، وأكتفى منه هنا بجزئه الأخير: ولو جاءكم [ما قالت العرب] وافرا لجاءكم علم وشعر كثير.

تؤدى بنا هذه الصورة إلى النتيجة الطبيعية - والواقعة في حياة العرب - أن من اشتغل برواية الشعر العربي، فاهما لمعانيه، مدركا لمرامييه، كان العارف بأخبار العرب أو ما اعتقد العرب أنه أخبارهم؛ وأن من سعى وراء معرفة أخبار العرب كان واجبا عليه البحث عن شعرهم أولاً. فالبحث عن الشعر العربي والسعى وراء أخبار العرب هدفان لكن طريقيهما واحد. فإذا ما سلكه عالم واع أدرك الهدفين معا. ولست أشك في وعى يونس، فكان لذلك حافظاً للشعر، عارفاً بالأخبار. بل لقد

(١) الحيوان ١ : ٧١.

(٢) تأويل مشكل القرآن ١٤.

أثر اجتماع هذين الأمرين في مزاجه وتذوقه للشعر، فدفعاه إلى الإعجاب بالشعر الذى يفى بهما. فوجد أمامه شعر الفرزدق لا يماثله شعر فى هذا الجانب. فالتزمه، وتبعه، وأحبه، رافعا شعاره^(١): "لولا شعر الفرزدق لذهب نصف أخبار الناس".

وتدل الأخبار الباقية من رواية يونس أنه استقى بعضها من شيخه أبى عمرو؛ وأنه استقى منه أخبارا متنوعة الطابع. فقد كان منها ما تؤمن العرب أنه تاريخها القديم. روى عنه مثلا قوله^(٢): "العرب كلها ولد إسماعيل إلا حمير وبقايا جرهم"، وما حكاه عن براقش التى يضرب بها المثل^(٣). وكان منها القصص الشعبية الجارية على الألسنة تفسيرا للمثل^(٤).

كذلك استقى يونس بعض أخباره من رجل آخر غير مشهور، ولكنه كان على معرفة واسعة بالأحداث التى أخذها يونس عنه. قال أبو عبيدة فى بعض أخباره^(٥): "فحدثنى سلام بن أبى خيرة قال: سمعته أيضا من أبى الخنساء كسيب العنبرى يحدث يونس النحوى - وكان علامة أهل البصرة".

ويدل ما أخذه يونس عن أبى عمرو أنه كان له مشاركة فى العناية بهذين اللونين من الأخبار اللذين ذكرتهما. وفعلا نجد بين الرويات واحدا أو اثنين نستطيع أن نضعهما تحت النوع الأول غير أنه لم يصرح بمصدره. ولعله يروى الخبر التالى عن أبى عمرو أيضا، إذ انه متصل بالخبر الذى سقته آنفا. قال ابن

(١) الجاحظ: البيان والتبيين ١ : ٣٢١.

(٢) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ١٠.

(٣) الميدانى: مجمع الأمثال ١ : ٤٧٥.

(٤) نفس المرجع ١ : ٤٩٧.

(٥) شرح نقائض جرير والفرزدق ٧٣٤.

سلام^(١): "قال يونس بن حبيب: أول من تكلم بالعربية، ونسى لسان أبيه، إسماعيل ابن ابراهيم، صلوات الله عليهما". ويبدو أن الرجل كان قليل الاهتمام بمثل هذه الأخبار، فلا تكثر عنده بل لا تتعدد.

أما النوع الثاني - أعنى القصص الشعبية - فأكثر عددا، وتنوعا. ولعل السبب في ذلك اتصال أكثرها بالأمثال التي ألف فيها يونس كتابا.

وأكثر الأخبار الباقية لدينا من القصص الشعبية ما دار حول العلاقات الفردية، وخاصة بين الرجال والنساء: أزواجا كانوا أو آباء وأبناء، أو أقارب. مثال ذلك ما قاله في تفسير المثل القائل (جاورينا واخبرينا) قال^(٢): "كان رجلان يتعشقان امرأة. وكان أحدهما جميلا وسيما، وكان الآخر دميما تقتحمه العين. فكان الجميل منهما يقول: "عاشرينا وانظري إلينا". وكان الدميم يقول: "جاورينا واخبرينا". فكانت تدنى الجميل. فقالت: "لاختبرنهما". فقالت لكل واحد منهما أن ينحر جزورا. فأتتهما متنكرة. فبدأت بالجميل فوجدته عند القدر يلحس الدسم ويأكل الشحم، ويقول: "احفظوا كل بيضاء ليه" يعنى الشحم. فاستطعمته فأمرها بثيل الجزور فوضع في قصعتها. ثم أتت الدميم، فإذا هو يقسم لحم الجزور ويعطى كل من سأله. فسألته، فأمرها بأطياب الجزور فوضع في قصعتها. فرفعت الذي أعطاه كل واحد منهما على حدة. فلما أصبحتا غدوا إليها، فوضعت بين يدي كل واحد منهما ما أعطاه. وأقصت الجميل وقربت الدميم ويقال: إنها تزوجته. يضرب في القبيح المنظر الجميل المخبر".

وكان من القصص الشعبية التي اتسع انتشارها بين العرب وأقبلوا عليها

(١) طبقات فحول الشعراء ٩. السيوطي: المزهر ١: ١٧٤.

(٢) الميداني: مجمع الأمثال ١: ١٦٩.

إقبالاً لا نظير له ما دار حول العشاق، والعذريين منهم خالصة. وكان ليونس أدنى مشاركة فيها، فقد نسبت إليه رواية إحدى هذه القصص. قال السراج^(١): "عن يونس قال: انصرفت من الحج فمررت بماوية، وكان لي فيها صديق من بنى عامر ابن صعصعة، فصرت إليه مسلماً فأنزلني، فبينما أنا عنده، ونحن قاعدان بفنائمه، إذا نساء مستبشرات وهن يقلن: "تكلم تكلم" فقلت: "ما هذا؟" فقالوا: "فتى منا كان يعشق ابنة عم له، فزوجت وحملت إلى ناحية الحجاز. فإنه لعلى فراشه منذ حول ما تكلم ولا أكل إلا أن يؤتى بما يأكله ويشربه. فقلت: "أحب أن أراه". فقام وقمت معه. فمشينا غير بعيد وإذا بفتى مضطجع بفناء بيت من تلك البيوت لم يبق منه إلا خيال. فأكب عليه الشيخ يسأله وأمه واقفة. فقالت: "يامالك، هذا عمك أبو فلان يعودك". ففتح عينيه وأنشأ يقول:

ليكني اليوم أهل الود والشفق لم يبق من مهجتي إلا شفا رmq
اليوم آخر عهدي بالحياة فقد أطلقت من ربة الأحزان والقلق
ثم تنفس الصعداء فإذا هو ميت. فقام الشيخ وقمت فانصرفت إلى خبائه، فإذا جارية بضة تبكي وتتفجع. فقال الشيخ: "مايكيك؟" فأنشأت تقول:

ألا أبكى لصب شف مهجته طول السقام وأضنى جسمه الكمد
ياليت من خلف القلب الهيوم به عندي فأشكو إليه بعض ما أجد
انشر تبرك أسرى لي النسيم به أم أنت حيث يناط السحر والكبد
ثم انثنت على كبدها وشهقت فإذا هي ميتة. قال يونس فقمت من عند الشيخ وأنا وقيد".

(١) مصارع العشاق ١ : ٤٠.

والخبر يسير على النمط الشائع في هذه القصص، ولا يخالفه أدنى خلاف.

وشارك يونس في نوع آخر من القصص الشعبية كان له رواجه في ذلك العصر، أعنى قصص الحيوان، أو القصص التي تتخذ من الحيوان أبطالاً لها؛ وهي كثيرة وخاصة في الأمثال. روى الميداني^(١) في تفسير المثل القائل: (لا أحب تخديش وجه الصاحب): "قال يونس: تزعم العرب أن الثعلب رأى حجراً أبيض بين لصبين فأراد أن يغتال به الأسد. فأتاه ذات يوم فقال: يا أبا الحارث، الغنيمة الباردة: شحمة رأيتها بين لصبين، فكرهت أن أدنو منها، وأحببت أن تتولى ذلك أنت فهلم لأريكها: فانطلق به حتى قام به عليه. فقال: دونك يا أبا الحارث. فذهب الأسد ليدخل فضايق به المكان. فقال له الثعلب: أردس برأسك. أى أذفع برأسك. فأقبل الأسد يردد برأسه حتى نشب، فلم يقدر أن يتقدم ولا أن يتأخر. ثم أقبل الثعلب يحوره، أى يخدش خورانه من قبل دبره. فقال الأسد: ما تصنع يا ثعالة. قال: أريد لأستنقذك. قال: فمن قبل الرأس إذن. فقال الثعلب: لا أحب تخديش وجه الصاحب. يضرب للرجل يريك من نفسه النصيحة ثم يغدر".

ولا نستطيع أن ندعى ليونس منهجا ينفرد به في روايته هذه القصص الشعبية الدائرة على الألسنة، ولا طريقة ذات خصائص متميزة عن غيره. فمثله فيها مثل كل من رواها، يقتصر على الرواية دون النقد، ولا يحاول عليها تعليقا بالتصديق أو التكذيب.

ومهما يكن من شيء فما بقي لدينا منها قليل، لا يمكن الاعتماد عليه في استخلاص شيء ذي بال عن يونس. ويبدو لي أن هذه القلة ناتجة عن عدم إعطاء

(١) مجمع الأمثال ٢ : ١٩١ .

يونس هذه الأخبار ما أعطاه غيرها من اهتمام. فإننا إذا قارنا بين ما وصل إلينا منها وما وصل من أخبار الشعراء وجدنا أخبار الشعراء أضعاف النوع الأول من القصص. ولنا الحق أن نقول إن أخبار الشعراء كانت الاهتمام الأول ليونس، وإن غيرها إنما كان أمرا عارضا. لا أستثنى من ذلك غير ما تضمنته الأمثال، إذ اضطر إلى العناية بها في كتابه.

وعندما ننظر فيما بقى بين أيدينا من أخبار الشعراء نفاجأ بظاهرة لافتة للنظر، وهي أن شيئا منها لا يعود إلى الوراء البعيد، ولا ينظر إلى الحاضر القريب. فلم أعثر على خبر رواه يونس عن شاعر عباسي. وقد يكون هذا شيئا طبيعيا، فإن النحويين من أمثاله عدوا هؤلاء الشعراء مولدين، ومنعوا الاستشهاد بأقوالهم، ولم يعترفوا بهم. والاستثناء الوحيد خبر عن قرشي لم يذكر اسمه، وليس فيه ما يجعله جديرا بالرواية. ولعل يونس فعل ذلك تملحا. قال ابن سلام^(١): "حدثنا يونس قال: كنا على باب ابن عمير، فمرت بنا امرأة يدفع بعضها بعضا كأنها خائفة. فما لبثنا أن أقبل فتى من قريش عليه قميص قوهى ورداء. فلما رأنا ارتدع، فقلنا: ها هنا طلبتك. فتبعها وقال:

إذا سلكت قصد السبيل سلكته وإن هي عاجت عجت حيث تعرج".

ولم أعثر - للعجب - على واحد يروي يونس من أخبار الجاهليين، وهم أول من يستشهد بهم فى النحو.

وإنما أقدم من حكى أخباره من الشعراء: المخضرمون مثل الخطيئة وعبد الله ابن همام السلولى وأبى الأسود الدؤلى. قال ابن سلام: "أخبرنى يونس النحوى

(١) السيرافى: أخبار النحويين البصريين ٢٨.

قال: خرج الحطيئة مع ابنته مليكة، وامراته أمامة، على ذود له ثلاث، فنزل منزلاً وسرح زوده. فلما قام للرواح فقد إحداهن، فقال^(١)

أذنب القفر أم ذئب أنيس أصاب البكر أم حدث الليالي
ونحن ثلاثة، وثلاث ذود، لقد جار الزمان على عيالي

ثم يستأثر الأمويون بأغلبية الأخبار. وأشعر أنى أتجوز في هذا القول، وأوسع النطاق أكثر مما يجب. فما وجدت إلا خبراً واحداً عن أكثر الشعراء الذين تحدث عنهم، مثل كثير عزة، وأبي دؤاد الرؤاسي. قال ابن سلام: "حدثني يونس بن حبيب قال: وقعت حرب بين عقيل بن كعب وغير بن عامر، فلم يبق لهم بنو عقيل، وجعلت غير تسرف عليهم. فلما رأت ذلك بنو كعب وبنو كلاب وما تلقى عقيل من غير، أجمعوا على قتل بني غير. فارتحلت غير ليلحقوا ببني سعد بن زيد مناة، فلحقتهم كلاب فردتهم، فتحملوا ما كان لهم من دم في بني كعب، ووهبوا لهم ما كان منهم. فقال أبو دؤاد الرؤاسي في ذلك^(٢):

دفعنا، والأحبة من دفعنا وكنا ملجأ لبني غير
حوينا حجرنا لهم فحلوا إلينا بعد تظعان وسير
وكان الرأس يوم قراض منا ومنا الرأس يوم أبي عمير
فان وهت العصا وأمنتهمهم فلا تستبدلوا أخيال طير
صديق كلما كنتم بشر وأعداء إذا كنتم بخير

وكانت أغلب الأخبار على هذا النمط من القصر، فلا تطول وتتعدد الأشعار

(١) طبقات فحول الشعراء ٩٦.

(٢) طبقات فحول الشعراء ٥٩٠.

في غير ما رواه عن الأخطل، وابن مفرغ الحميري، ويزيد بن عبد الملك. فقد روى^(١): "أن حباة جارية يزيد بن عبد الملك غنت يوما:

بين التراقى واللهاة حرارة ما تطمئن وما تسوغ فترد

فأهوى ليطير فقالت: يا أمير المؤمنين، إن لنا فيك حاجة. فمرضت وثقلت فقال: كيف أنت يا حباة؟ فلم تجبه. فبكى وقال:

لئن لم تسل عنك النفس أو يذهل الهوى فبالياس يسلو القلب لا بالتجلد
وسمع جارية لها تتمثل:

كفى حزنا بالهائم الصب أن يرى منازل من يهوى معطلة قفرا
فكان يتمثل بهذا... "

كل هذا القول ينطبق على الشعراء الأمويين غير واحد، ولذلك صرحت أنى أتجوز حين أعلن أن هؤلاء الشعراء استأثروا بأغلب أشعاره. فالحق أن الذى استأثر بها هو ذلك الشاعر الواحد وهو الشاعر الذى حفظ شعره أخبار الناس، أعنى الفرزدق.

فالأخبار الباقية تدل على أنه أولاه من العناية ما لم يول لغيره من الشعراء، فروى عنه من الأخبار قدر ما روى عن بقية الشعراء الأمويين. وكشف عن جوانب متعددة من حياة الرجل، تتصل بالأغراض المختلفة من شعره، من غزل وفخر وهجاء ونقائض. قال ابن سلام^(٢): "كان للفرزدق غلامان أحدهما اسمه وقاع، والآخر نقطة. ولو قاع يقول الفرزدق:

(١) تاريخ الطبرى ٢: ١٤٦٥ (أحداث سنة ١٠٥).

(٢) طبقات فحول الشعراء ٣٧. المرزبانى: الموشح ١١٤.

تحوض خداريا من الليل أخضرا
إذا هو للضبي الغرير تقترأ

تغلغل وقاع إليها فأصبحت
لطيف، إذا ما انغل أدرك ما ابتغى
وقال أيضا:

وأدخل رأسه تحت القمرام
من المتلقطى قرد القمام
وذاك إليه مجتمع الزحام
وسادسة تميل إلى الشمام
وبت أفض أغلاق الختام"

فأبغلهن وحى القول عنى
أسيد ذو خريطة نهارة
فقلن له: نواعدك الثريا
ثلاث واثنتان فهن خمس
فبتن بجانبى مصرعات

والتفت بطبيعة الحال إلى ما كان بينه وبين جرير من تناقض، فروى خبرا
يكشف عن خلق كل منهما، قال^(١): "كان الفرزدق يتصور ويجزع إذا أنشد لجرير،
وكان جرير أصبرهما". وروى خبرا آخر يبين حال الناس بينهما، قال^(٢): "ما
شهدت مشهدا قط ذكر فيه جرير والفرزدق فأجمع أهل ذلك المجلس على
أحدهما".

وروى بعض الطرائف التي وقعت بين الفرزدق وبعض الشعراء مثل الحوار
الذى دار بينه وبين الأصوص الأنصارى^(٣)، وما كان بينه وبين نصيب فى مجلس
سليمان بن عبد الملك وحكيته فى الفصل السابق، كما ذكرت آنفا أخبار الشعراء
الذين تعرض لهم يونس لأنهم تعرضوا للفرزدق مثل اللعين المنقرى وجرير بن خرقاء
العجلى.

(١) ابن سلام ٣١٧.

(٢) ابن سلام ٢٥١. الأغاني ٨ : ٥.

(٣) ابن سلام ٣١٣.

ويهجس بخاطري ظن أن يونس تحدث عن أبي النجم، إذ كان خبره له اتصال ما بأخبار الفرزدق. قال^(١): "اجتمع الشعراء عند سليمان بن عبد الله فأمرهم أن يقول كل رجل منهم قصيدة يذكر فيها مآثر قومه ولا يكذب. ثم جعل لمن برز منهم جارية مولدة. فأنشدوا، وأنشد أبو النجم حتى أتى على قوله:

عُدُّوا كم رُبِعَ الجيوش لصلبه عشرون، وهو يعدُّ في الأحياء

قال: أشهد - إن كنت صادقاً - أنك لصاحب الجارية. قال أبو النجم: سل الملاء عن ذلك يا أمير المؤمنين. قال الفرزدق: أما أنا فأعرف منهم ستة عشر، ومن ولد ولده أربعة، كلهم قد ربع. فقال سليمان: ولد ولده هم ولده، ادفع إليه الجارية".

وطبيعي بعد أن قال عن الفرزدق ما قال، وحكى عنه ما حكى، أن يعنى بما أشار إليه في شعره من أخبار. ولما كنا نعلم أن النقائض خاصة مليئة بالإشارات التاريخية التي تشيد بمفاخر قبيلة الشاعر ومآثرها، وتعيب قبيلة خصمها بما كان فيها من مثالب أو ما قاسته في حروبها من هزائم؛ كان غير غريب علينا أن نعتقد أن المجال الذي عنى يونس بأخباره فسيح، لا يغفل جاهلية ولا إسلاما. ولكن الحق أننا لا نملك دليلا على شيء من هذا. فكل ما وجدته منسوبا إليه أخبار تتعلق بما أراد أن يضطلع به عبيد الله بن زياد في البصرة بعد وفاة الخليفة يزيد بن معاوية، وعدم قيام خليفة يبايعه الناس، واضطراب الأمر في الأقطار الإسلامية. وكان ذلك منه بمناسبة حديثه عن قول الفرزدق خاصا بهذه الأحداث:

(١) ابن سلام ٥٧٨.

ومن الذى أعطى يديه رهينة لغارى معد يوم ضرب الجماجم
كفى كل أم ما تخاف على ابنها وهن قيام رافعات المعاصم
عشية سال المربدان كلاهما عجاجة موت بالسيوف الصوارم

قال أبو عبيدة^(١) "مبدأ حديثه أن يونس بن حبيب النحوى حدثنى قال: لما قتل عبيد الله بن زياد الحسين بن على رضى الله عنهما وبنى أبيه بعث برؤوسهم إلى يزيد. فسر بقتلهم أولا وحسنت بذلك منزلة عبيد الله عنده. قال فلم يلبث إلا قليلا حتى ندم على قتل الحسين رضى الله عنه فكان يقول: وما كان على لو احتملت للحسين الأذى، فأنزله معى فى دارى، وحكمته فيما يريد، وإن كان فى ذلك وكف ووهن فى سلطانى، حفظا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ورعاية لحقه وقرابته. لعن الله ابن مرجانة، فإنه أخرجته واضطره، وقد كان سأله أن يخلى سبيله ويرجع من حيث أقبل أو يأتينى ويضع يده فى يدى أو يلحق بثغر من ثغور المسلمين حتى يتوفاه الله تعالى، فأبى ذلك ورده عليه وقتله، فبغضنى بقتله إلى المسلمين وزرع فى قلوبهم العداوة، فأبغضنى له البر والفاجر بما استعظم الناس من قتلى حسينا. مالى ولا بن مرجانة، لعنه الله وغضب عليه! ثم إن عبيد الله بعث مولى له يقال له أيوب بن همران إلى الشام ليأتيه بخبر يزيد. قال: فركب عبيد الله ذات يوم حتى إذا كان فى رحبة القصابين إذا هو بأيوب بن همران قد قدم، فلحقه فأسر إليه موت يزيد بن معاوية. فرجع عبيد الله من مسيره ذلك. فأتى منزله وأمر عبد الله بن حصن - أحد بنى ثعلبة بن يربوع - فنادى: الصلاة جامعة ..".

نخلص من هذا بأن يونس بن حبيب عنى بقسمين متميزين من الأخبار. يتألف

(١) شرح نقائص جرير والفرزدق ٧٢١. وانظر ٧٢٤، ٧٢٩، ٧٣٤.

القسم الأول من القصص الشعبية التي رددتها الألسنة في الجاهلية والاسلام على اختلاف ألوانها، من قصص العلاقات بين الأفراد، والعلاقات بين القبائل، وقصص العشاق العذريين، وقصص الحيوان المتخيلة. وكان الذى دعاه إلى العناية بهذه الألوان من القصص الشعبية أو أغلبها، كتاب الأمثال الذى ألفه، لأن الأمثال تقوم على هذا القسم من القصص، ولم يختلف نهج يونس عن نهج نظرائه الذين عنوا بهذا القسم وجمعوا أخباره ودونوهم دون نقد ولا تمحيص.

ويتألف القسم الثانى من أخبار الشعراء. وقد أهمل يونس الجاهليين والعباسيين منهم فلم أجد فيما بين يدي من أخبار شيئا عنهم. واقتصر على المخضرمين والاسلاميين أو الأمويين، فتحدث عن جماعة منهم، غير أن القسط الأكبر من حديثه كان عن الفرزدق ومن اتصل بهم وما أشار إليه فى شعره من أحداث.

فلا عجب أن ينعت الناعتون بأنه كان فرزدقيا^(١). ويدل هذا على صدق قول ابن سلام حين وصف يونس فقال: "إخبارى نسابة وخاصة أخبار شعراء بنى أمية". فكل ما بين أيدينا يؤكد الشطر الثانى من هذا القول.

أما وصفه "بالنسابة" فلم أجد فى الأخبار التى عثرت عليها ما يدعمه غير حديثه عن ابن مفرغ الحميرى، فقد أورد نسبة أو قطعة منه. ولم أجد ما يشبه ذلك فيما بقى من حديثه عن سائر الشعراء. وكان لنا الحق فى الشك فى هذا الوصف، لولا أن يونس - كما يبدو - كان مشهورا بمعرفة الأنساب وما تحتوى عليه من مفاخر

(١) أبو الفرج: الأغاني ٨ : ٥.

ومثالب، حتى ضرب به المثل. قال الجاحظ^(٢): "وصف الهذيل المازني مثنى بن زهير وحفظه لأنساب الحمام، فقال: والله هو أنسب من سعيد بن المسيب وقتادة بن دعامة للناس، بل هو أنسب من أبي بكر الصديق رضى الله عنه. لقد دخلت على رجل أعرف بالأمهات المنجيات من سحيم بن حفص، وأعرف بما دخلها من الهجنة والإقراف من يونس بن حبيب". إذن فلا شك أنه كان نسابة حقا، وإن لم يتبين ذلك فيما بقي من مروياته.

وكشف لنا النظر في هذه المرويات أنه أخذ قسطا منها من أستاذه أبي عمرو، والقسط الآخر من العارفين بالأخبار، المعاصرين لها، وتحرى منهم الذين اشتهروا بسعة المعرفة والثقة. وعنى في هذه الأخبار بما اتصل بجياة الشعراء، وبما أشاروا إليه في شعرهم. وحاول الاحاطة الشاملة فى رواية الأخبار التى تضمنها الشعر، فعنى بالدقائق والتفاصيل، وصورها على اتساع مجالها دون أن يقتصر على الجزء الذى يوضح الشعر منها.

النقد

برز لنا يونس بن حبيب واحدا من علماء العربية، الذين عاشوا فى القرن الثانى، وشارك فيما أخذوا فيه. فكان له حظ من رواية الشعر، وأكثر من حظ فى العناية بأخبار أصحابه والأخبار الواردة فيه، وخاصة من العصر الأموى.

وقد احتفل علماء العربية فى هذا العهد بنقد الشعر احتفالا كبيرا، بل يمكن القول بأن هذا الاحتفال تجاوز علماء العربية إلى غيرهم من عامة الناس، بسبب ما

(٢) الحيوان ٣ : ٢١٠.

اشتبك فيه جرير والفرزدق والأخطل وجماعة كبيرة من الشعراء من تناقض، وترقب الناس لما يخرجهم كل منهم رداً على خصمه، ثم التنازع في غلبة كل منهم على الآخر في النقيضين آناً، وفي النقااض كلها آناً أخرى؛ وفي فن الهجاء آونة، وفي الشعر بجميع فنونه أخرى. حتى قال من أرخ للنقد العربي^(١): "غير أن الحال تغيرت كثيراً في أواخر القرن الأول، تغيرت في أخريات أيام فحول الاسلاميين. فارتقى النقد الأدبي ارتقاء محموداً، وكثر الخوض فيه، وتعمق الناس في فهم الأدب، ووازنوا بين شعر وشعر، وبين شاعر وآخر، حتى لنستطيع أن نقول: إن عهد النقد الصحيح يبتدىء من ذلك الوقت، وأن كل ما سبق لم يكن غير نواة له أو محاولات فيه".

ولم يكن من الطبيعي أن يعيش يونس في هذه المعركة الشعرية وأعقابها، وفي هذه المعركة النقدية، ولا يصاب بحماها، وخاصة أن بعض شيوخه كان لهم نصيبهم فيها.

وإذا كان الأمر كذلك، أحب أن أستهل بما اقتصر فيه يونس على الرواية، وحكاية مواقف شيوخه، ومن التقى بهم من الناس. وحين نفعل ذلك نجد يونس يروى عن أربع فئات من الناس: الشعراء، وكبار القوم، والشيوخ، وجاهل الناس. فكان أكثر من روى عنهم الشعراء من أمثال الفرزدق، ورؤبة، وذو الرمة. وقد أوردت سابقاً الخبر الذي أعجب فيه الفرزدق بشعر لنصيب حتى وصفه بأنه أشعر بنى جلدته. وأما رؤبة فقد اتهم جريراً بالكذب أو الخطأ في واحد من معانيه، كما سبق أن رأينا.

(١) طه احمد ابراهيم: تاريخ النقد الأدبي عند العرب ٣٣.

وروى نقدين عن اثنين من خلفاء بنى أمية، وهما سليمان بن عبد الملك، الذى شارك الفرزدق فى الاعجاب بأبيات نصيب؛ وعبد الملك بن مروان الذى فضل أبياتا للأعشى على أبيات لكثير. قال ابن سلام^(١): "قال يونس: أنشد كثير عبد الملك مدحته التى يقول فيها:

على ابن أبى العاصى دلاص حصينة أجاد المسدى سردها وأذالها
يسؤود ضعيف القوم حمل قنبرها ويستضلع القوم الأشم احتمالها
فقال له عبد الملك: قول الأعشى لقيس بن معدى كرب أحب إلى من قولك
إذ تقول". أراد بقول الأعشى:

وإذا تجىء كتيبة ملمومة شهباء يخشى الذائدون نهالها
كنت المقدم، غير لابس جنة بالسيف تضرب معلما أبطالها
وآثر برواية النقد شيخا واحدا هو ابن أبى اسحاق، فحكى مواقفه من الفرزدق، والمعركة التى احتدمت بينهما بسبب ما ارتكب الشاعر فى لغته. وروى عنه رأيا كان منكرًا له. قال ابن سلام^(٢): "أخبرنى يونس كالمتعجب أن ابن أبى إسحاق كان يقول: أشعر أهل الجاهلية مرقش، وأشعر أهل الاسلام كثير. ولم يقبل هذا القول ولم يشع".

أما الجماهير التى أورد آراءها فقد قال ابن سلام بصدد^(٣): "أخبرنى يونس

(١) الموضح ١٤٥. وانظر تكملة الخبر ورد كثير عند ابن سلام ٤٥٨.

(٢) طبقات فحول الشعراء ٤٤، ٤٥٧.

(٣) نفس المرجع ٤٤.

ابن حبيب: أن علماء البصرة كانوا يقدموا امرأ القيس بن حجر، وأهل الكوفة كانوا يقدمون الأعشى، وأن أهل الحجاز يقدمون زهيراً". وأضاف السيوطي^(١): "وكان أهل العالية لا يعدلون بالنابغة أحداً، كما أن أهل الحجاز لا يعدلون بزهير أحداً".

وكل هذه الأقوال غير ذات أهمية كبيرة للبحث عن يونس، لأنها لا تكشف عن موقف للرجل، ولا تبين رأياً خاصاً له، غير استنكاره لما قال أستاذه ابن أبي إسحاق. وإن يونس لثروى عنه أقوال نقدية كثيرة تغنيا عن الالتفات إلى مروياته.

ونستطيع أن نجعل هذه الأقوال أصنافاً. نبدأ منها بأحكامه العامة على فن الشعر. فقد روى سليمان بن إسحاق الزبالي عنه أنه قال^(٢): "الشعر كالسراء والشجاعة والجمال لا ينتهي منه إلى غاية". ويدل هذا القول على أن الرجل كان يرى أن هناك أموراً معنوية، وتقديرية، يختلف النظر فيها، ولا يستطيع أن يحكم أنها انتهت إلى غاية لها لا تتجاوزها بل لا يستطيع أحد أن يقارن بين المغترفين منها: أيهم أعظم حظاً منها، وخاصة عندما يتقارب نصيبهم. ومن هنا كان عسيراً أن نصل إلى رأى مجمع عليه أن فلانا أشعر الشعراء. ولا أتفق مع الصديق الدكتور محمد زغلول سلام^(٣) أن هذا القول بصدده صلة الشعر بالأحاسيس الانسانية.

وننتقل من فن الشعر عامة إلى أغراضه، فقد كان ليونس نظرات فى بعضها. فقد حاول أن يعرف المدح والتأبين ويفرق بينهما، فقال^(٤): "التأبين مدح الميت والثناء عليه. قال رؤبة: (فامدح بلالا غير ما مؤبن) والمدح للميت". ولست أدري

(١) الزهر ٢ : ٤٨٢.

(٢) ابن سلام ٥٥.

(٣) تاريخ النقد العربى ٣١.

(٤) ابن سلام ١٧٤.

أيفرق يونس بين التائبين والرتاء أم لا . ولكن ما قاله هنا عده النقاد التعريف الصحيح، ولم يفرقوا بينه وبين الرتاء. فشاع^(١) بينهم أن الرتاء ثناء على الميت، وأن لا فرق بينه وبين المديح غير موت المقصود بالأول وحياة المقصود بالثاني. وفقدنا عندهم الشعور بالأسى واللوعة من أجل الفقيد، إلى أن تنبه إليه ابن رشيقي فأبرزه وإن كان قد قصره على طبقة خاصة من الناس، قال^(٢): "سبيل الرتاء أن يكون ظاهر الترفع، بين الحسرة، مخلوطا بالتلهف والأسف والاستعظام، إن كان الميت ملكا أو رئيسا كبيرا". ولحسن الحظ أن الشعراء لم يأبهوا لهذا الكلام وساروا في طريقهم مظهرين ما شاءوا من عواطف، فمنحونا مجموعة من روائع الرتاء.

ونظر في الهجاء، ومسالك الشعراء فيه، واستجابة الناس لكل واحد منها، فقال^(٣): "أشد الهجاء بالتفضيل، وهو الإقذاع عندهم". وقد أخذ يونس هذا القول مما جرى بين عمر بن الخطاب والحطيئة. قال ابن رشيقي^(٤): "لما أطلق عمر ابن الخطاب رضى الله عنه الحطيئة من حبسه إياه بسبب هجائه الزبرقان بن بدر، قال له: إياك والهجاء المقذع. قال: وما المقذع يا أمير المؤمنين؟ قال: المقذع أن تقول: هؤلاء أفضل من هؤلاء وأشرف، وتبنى شعرا على مدح لقوم وذم لمن تعاديهم. قال: أنت والله يا أمير المؤمنين أعلم منى بمذاهب الشعر..".

ولم يتفق كثير من النقاد مع يونس في كون هذا النوع من الهجاء أشدها. فالأقوال متعددة في هذا الصدد تكشف عن اختلاف كبير، لعله يكشف عن

(١) الدكتور أحمد أحمد بدوي: أسس النقد الأدبي عند العرب ٢٢٤.

(٢) العمدة ٢ : ١٧٤.

(٣) العمدة ٢ : ١٧٠.

(٤) العمدة ٢ : ١٧٠.

مزاج القائل، ومزاج العصر الذي كان يعيش. فعلى حين يقول أبو عمرو بن العلاء^(١): "خير الهجاء ما تنشده العذراء في خدرها فلا يقبح بمثلها" يؤيده خلف الأحرر ويقول^(٢): "أشد الهجاء أعفه وأصدقه" يقول القاضي الجرجاني^(٣): "فأما الهجو فأبلغه ما جرى مجرى الهزل والتهافت، وما اعترض بين التصريح والتعريض، وما قربت معانيه، وسهل حفظه، وأسرع علوقه بالقلب ولصوقه بالنفس. فأما القذف والإفحاش فسباب محض، وليس للشاعر فيه إلا إقامة الوزن وتصحيح النظم"، ويرى قدامة بن جعفر^(٤) أن الهجاء الجيد يكون بسلب الفضائل النفسية.

ونظر في تحسر الشعراء على الشباب المولّى، واستذكر ما يعرف من شعر، فوجد أنه لا يفي بحق هذا العزيز الذاهب. قال^(٥): "ما بكث العرب على شيء بكاءها على الشباب، وما بلغت به كنه ما يستحق". وقد أخذ الصولي^(٦) عنه هذا الحكم، وأفاد منه في تفصيل مقطوعة لنصور النمرى.

والتفت إلى العيوب العروضية التي تلحق الشعر، فقال^(٧): "عيوب الشعر أربعة: الزحاف والسناد والإيطاء والاكفاء - وهو الإقواء".

وقد اتفق يونس في تعريفه هذا للاكفاء مع^(٨) "جلة العلماء كأبي عمرو بن

(١) العمدة ٢ : ١٧٠ .

(٢) العمدة ٢ : ١٧٠ .

(٣) الوساطة ٢٤ .

(٤) نقد الشعر ٣٠ .

(٥) المبرد: الفاضل ٧٢ . الزبيدي ٤٩ .

(٦) أخبار أبي تمام ٢٧ .

(٧) ابن سلام ٥٦ .

(٨) العمدة ١ : ١٦٦ .

العلاء، والخليل بن أحمد، وأحمد بن يحيى ثعلب"، غير أن المفضل الضبي والمبرد خالفاه وجعلوا الاكفاء اختلافاً الحروف في الروى.

ونبه إلى جماعة من كبار الشعراء وقعوا فيه ولم يفتنوا إلى تبرئة شعرهم منه. قال^(١) : وقد ركب بعض الفحول الإقواء فى مواضع مثل سحيم بن وثيل الرياحى فى قوله:

عرين من عرينة ليس منا برئت إلى عرينة من عرين
عرفنا جعفرًا وبنى عبـيد وأنكرنا زعانف آخريـن

وهون يونس من شأن الزحاف، دون بقية العيوب العروضية، فقال^(٢): أهون عيوب الشعر الزحاف وهو أن ينقص الجزء عن سائر الأجزاء". فاتفق فى هذا مع الخليل، الذى ذهب إلى أبعد مما ذهب إليه يونس، فاستحسن القليل منه فى الشعر^(٣).

وعثرت على قولين يدلان على أن يونس تحدث فى أشياء تدرج تحت ما عرفه النقاد بالسرقات الشعرية. فاستبعد فى قول الزبرقان الذى ذكرته آنفاً السرقة، ورأى أنها تضمنين لبيت على هيئة المثل السائر.

ويبدو أن يونس اعتمد فى إنكار أن يكون هذا الأمر من السرقة على أستاذه أبى عمرو بن العلاء^(٤) الذى لم ير ذلك عيباً.

(١) قدامة : نقد الشعر ١٠٩ .

(٢) الموشح ٨٣ . قدامة : نقد الشعر ١٠٧ .

(٣) ابن سلام ٥٨ .

(٤) العمدة ٢ : ٢٨٣ .

ونبه في القول الثاني إلى أحد المعاني التي استوحاها جرير من القرآن. فقد علق على بيته:

مازلت تحسب كل شيء بعدهم خيلا تشد عليكم ورجالا
فقال^(١): "أخذ هذا المعنى من قول الله: ﴿يَحْسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعُدُو﴾".
وعند يونس كثير من الأحكام العامة. أطلق بعضها على قبائل، مثل قوله^(٢):
"ليس في بني أسد إلا خطيب أو شاعر أو قائف أو زاجر أو كاهن أو فارس. وقال:
وليس في هذيل إلا شاعر أو رام أو شديد العَدُو". وأطلق بعضها الآخر على شعراء، أعجب بشعرهم أو استهجنه جملة. فقد كان يعجب بشعر النابغة الجعدي، ورجز رؤبة، ويثني عليهما. روى الجاحظ عنه أنه قال^(٣): "إنما الشعر المحمود كشعر النابغة الجعدي ورؤبة". واستبطن من ذلك أنه كان يميل إلى الشعر غير المصنوع المجرد، ويفضله على الشعر الذي يترؤى فيه صاحبه ويتأنق. وروى ابن سلام أنه كان معجبا أيضا بشعر ابن قيس الرقيات وعبد الله بن الزبير من القرشيين، قال^(٤): "كان عبيد الله أشد قريش أسر شعر في الإسلام بعد ابن الزبير". وكان الأخطل من الشعراء الذين أعجب بعدوية شعرهم، قال^(٥): "ما أكثر ماء شعر الأخطل". وأعتقد أني في غنى عن الإشارة إلى إعجابه بشعر الفرزدق لما احتوى عليه من أخبار الناس.

(١) الجاحظ: الحيوان ٥ : ٢٤٠.

(٢) الجاحظ: البيان ١ : ١٧٤.

(٣) البيان ٣ : ١٣، ٣ : ١١، ٤ : ٨٤.

(٤) طبقات فحول الشعراء ٥٣٠.

(٥) الصولي: أخبار أبي تمام ٣٣.

وكان البعيث الجاشعي في مرحلة متوسطة، إذ أساء في فن وأحسن في آخر، قال عنه^(١): "لعمري لئن كان مغلبًا في الشعر، لقد كان غلب في الخطب". وكان الأديب إذا غلبه خصومه قيل: مغلب، وإذا غلبهم هو قيل: غلب^(٢).

أما الشاعر الذي لم يرض عنه فهو عبيد الله بن الحر. قال إسحاق^(٣): "قلت ليونس: عبيد الله بن الحر يقوى؟ فقال: الإقواء خير منه".

وهناك رجل آخر لم يكن شاعرا، ولكنه كان بليغا، لفت إليه أنظار يونس، فتعلقت به في إعجاب خالص، وجعلته يقول^(٤): "ما جاءنا عن أحد من روائع الكلام ما جاءنا عن [عثمان] البتي".

وأشاد يونس بالناطقة الجعدى وروبة والعجاج مرة أخرى، غير أنه أزاح الستار في هذه المرة عن الغرض الشعري الذي يرى كلا منهم قد برز فيه أكثر من غيره. قال ابن سلام^(٥): "يونس: كان الجعدى أوصف الناس لفرس. أنشدت قوله رؤية:

فإن صدقوا قالوا: جواد مجرب ضليع ومن خير الجياد ضليعها
قال رؤية: ما كنت أرى المرفف منها إلا أسرع. ولم يكن رؤية والعجاج صاحبي خيل، ولكن كانا صاحبي إبل ونعتها".

وقال المرحوم الأستاذ طه أحمد إبراهيم^(٦): "عرف يونس أن امرأ القيس

(١) الجاحظ: البيان: ١، ٣٧٤، العصا: ٢٠١. السيوطي: الزهر: ٢: ٤٨٨.

(٢) ابن قتيبة عن يونس: أدب الكاتب ١٧٣.

(٣) قدامة: نقد الشعر ١٠٩. الجاحظ: الحيوان ١: ١٣٤.

(٤) الميداني: مجمع الأمثال ٢: ٢٠٦. وانظر سعيدا الأفغاني: في أصول النحو ٥٦ (الحواشي).

(٥) الطبقات ١٠٧. الجاحظ: رسائله ٢: ٢٢٠.

(٦) تاريخ النقد الأدبي عند العرب ٦٣.

وعبيد بن الأبرص وأوس بن حجر وعبد بنى الحسحاس وذا الرمة كانوا يحسنون وصف المطر".

وأعتقد أن الأمر اختلط عليه، فالذى أدلى بهذا الحكم هو ذو الرمة لا يونس، كما يدل قول ابن سلام^(١) : "أخبرني يونس بن حبيب قال: قيل لذي الرمة: من أحسن الناس وصفا للمطر؟ فذكروا قول عبيد:

دان مسف فويق الأرض هيدبه يكاد يدفعه من قام بالراح
.. وذكروا قول عبد بنى الحسحاس:

تعبت به ظنا وأيقنت أنه يحط الوعول والصخور الرواسيا
.. فقال بل قول امرئ القيس أجود حيث يقول:

ديمة هطلاء فيها وطف طبقت الأرض تحرى وتدر"

ولما كان العصر الذى عاش فيه يونس عصر الموازنة بين الشعراء، وتفضيل أحدهم على الآخر، بل تفضيل أحدهم على جميع الشعراء أحيانا؛ كان من الطبيعي أن يشارك رجل مثله فيما يخوض فيه الناس أو يضطر إلى ذلك، وإن كان لا يؤمن بصحة هذا المسلك. فقد رأيناه يحكم بعسر الوصول إلى أمثال هذه الأحكام المطلقة فى الأمور التقديرية. وقد أحسن يونس كل الاحسان عندما تهرب من سؤال بتفضيل واحد من الشعراء، ولجأ إلى الفن الذى أحسن فيه كل شاعر. قال ياقوت^(٢): "حدث محمد بن سلام قال: "سألت يونس النحوى عن أشعر الناس، فقال: لا أومى إلى رجل بعينه، ولكنى أقول: امرؤ القيس إذا ركب، والنايغة إذا

(١) الطبقات ٧٦.

(٢) معجم الأدباء ٢٠ : ٦٥.

رهب، وزهير إذا رغب، والأعشى إذا طرب". عنى بذلك أن امرأ القيس تفوق على غيره فى وصف الخيل، والنابغة فى الاعتذار، وزهيرا فى المدح، والأعشى فى وصف الحمر. وقد وجد هذا القول قبولا عاما من الأدباء والنقاد منذ صدوره إلى يومنا هذا، وكثر تردده على كل لسان تعرض لهؤلاء الشعراء. ولكننا لسنا على يقين من صدوره عن يونس. فقد روى^(١) أن قائله كثير أو نصيب، فإن كان ذلك حقا كان يونس راويا له لا مبتكرا. ورواه الأصمعى أيضا عن ابن أبى طرفة.

وبالرغم من كل هذا الحرص الذى أبداه يونس، والتوقى فى خوض غمار معركة التفضيل بين الشعراء، وقع فيها واصطلى بلهيبها، وخرج برأى غريب، لم يرافقه أحد فيه، وأعتقد أن الذى فرضه عليه أهدافه اللغوية. قال ابن رشيق^(٢): "زعم يونس أن العجاج أشعر أهل الرجز والقصيد. وقال: إنما هو كلام فأجودهم كلاما أشعرهم، والعجاج ليس فى شعره شىء يستطيع أحد أن يقول: لو كان فى مكانه غيره لكان أجود. وذكر أنه صنع أرجوزته:

* قد جبر الدين الاله فجير *

فيها نحو منتى بيت وهى موقوفة مقيدة. قال: ولو أطلقت قوافيها وساعد فيها الوزن لكانت منصوبة كلها".

ويبدو أن تلميذه أبا عبيدة حاول أن يزيد هذا الكلام إيضاحا، ويدعمه بأدلته، فقال^(٣): "إنما كان الشاعر يقول من الرجز البيتين والثلاثة ونحو ذلك، إذا

(١) العمدة ١ : ٦٥.

(٢) العمدة ١ : ٨٩. أبو الفرج (طبعة الساسى) ١٨ : ١٢٤. المزهر ٢ : ٤٨٤.

(٣) العمدة ١ : ٩٠.

حارب أو شاتم أو فاخر، حتى كان العجاج أول من أطاله وقصّده، ونسب فيه، وذكر الديار، واستوقف الركاب عليها، ووصف مافيها، وبكى على الشباب، ووصف الرحلة، كما فعلت الشعراء بالقصيد؛ فكان في الرجاز كامرئ القيس في الشعراء".

وإذا كان يونس فقد الرفيق في تفضيله المطلق للعجاج على سائر الشعراء والرجاز، فقد كان أكثر توفيقا في أحكامه التي وازن فيها بين شاعرين أو ثلاثة، ولقى من يؤيده ويؤنسه في طريقه. روى الكسائي^(١): "حضرت مجلسا والخليل فيه ويونس بن حبيب النحوى، فتذاكروا الشعر. فتكلم يونس في تقديم زهير وتقريضه حتى أغرب في وصفه. وذكر الخليل النابغة الذبياني".

وكلا الرجلين اعتمد على سابقين له في تفضيل الشاعر الذي فضل^(٢)، وتابعه في رأيه لاحقون.

ولما كان يونس يفضل العجاج على الجميع فقد مد رأيه هذا على ابنه ربيعة أيضا. قال أبو عبيدة^(٣): "قال ربيعة ليونس: أنا أشعر من أبي. قال: بل أبوك أشعر منك. قال: أبي يقول:

يادار سلمى، اسلمى ثم اسلمى بسمسم أو عن يمين سمسسم"

وكانت الظروف جميعا تجبره أن يخوض مع الخائضين في المعركة بين شعراء بنى أمية الثلاثة. فجعلهم مراتب ثلاثا. كانت المرتبة الأولى للأخطل، والثانية

(١) مجالس العلماء ٢٥٩.

(٢) ابن سلام ٤٧، ٥٢. ابن رشيقي ١ : ٩٨.

(٣) الموضح ٢١٨.

للفرزديق، والثالثة لجرير. قال أبو عبيدة^(١): " جاء رجل إلى يونس فقال له: من أشعر الثلاثة؟ قال: الأخطل. قلنا: من الثلاثة؟ قال: أى ثلاثة ذكروا فهو أشعرهم. قلنا: عمن تروى هذا؟ قال: عن عيسى بن عمر وابن أبي إسحاق الحضرمي وأبي عمرو بن العلاء وعنبسة الفيل وميمون الأقرن، الذين ماشوا الكلام وطرقوه.. لا كأصحابك هؤلاء لا بدويون ولا نحويون. فقلت للرجل: سله: وبأى شئ فضلوه؟ قال: بأنه كان أكثرهم عدد طوال جباد، ليس فيها سقط ولا فحش، وأشدهم تهذيبا للشعر. فقال أبو وهب الدقاق. أما إن حمادا وحنادا كانا لا يفضلاناه! فقال: وما حماد وحناد؟ لا نحويان ولا بدويان، ولا يبصران الكسور ولا يفصحان، وأنا أحدثك عن أبناء تسعين أو أكثر، أدوا إلى أمثالهم، ما شوا الكلام وطرقوه حتى وضعوا أبنيتهم، فلم تشذ عنهم زنة كلمة، وألقوا السليم بالسليم والمضاعف بالمضاعف والمعتل بالمعتل والأجوف بالأجوف وبنات الياء بالياء وبنات الواو بالواو، فلم تخف عليهم كلمة عربية. وما علم حماد وحنادا!".

وعقب ياقوت على هذا القول بأن يونس انفرد به. وذلك غير صحيح. فابن سلام يقول^(٢): "فاختلف الناس فيهم أشد الاختلاف وأكثره. وجامعة الاختلاف أو كله في الثلاثة. ومن خالف في الراعى قليل، كأنه آخرهم عند العامة" يريد جامعة العلماء. وأبو عبيدة يقول أيضا^(٣): "كان يونس بن حبيب وعيسى بن عمر وأبو عمرو يفضلون الأخطل على الثلاثة". ولا نعجب لهذا كثيرا إذا وضعنا أمامنا عبارة أبي عبيدة التي تبرز نظرهم إلى الأخطل،

(١) الأغاني ٨ : ٢٨٣. الزبيدي: الأمل ٨٠. الزمخشري: ربيع الأبرار ٤ : ١٠٤ معجم الأدباء ٢٠ : ٦٥.

(٢) الطبقات ٢٥١.

(٣) الأغاني ٨ : ٣٠٥.

قال^(١) : "الأخطل أشبه بالجاهلية، وأشدهم أسر شعر، وأقلهم سقطا". فقد كانوا بشعراء الجاهلية أعلق وألزم.

ولم أعتز على قول ليونس فضل فيه الفرزدق على جرير. ولكن أبا الفرج حكى ذلك في قوله^(٢) : "كان يونس فرزدقيا"، وأبان ابن سلام أبعاد هذا الإعجاب في قوله^(٣) : "كان يونس يقدم الفرزدق بغير إفراط".

وأورد الدكتور محمد زغلول سلام خيرا بشأن الموازنة بين الشعراء الثلاثة يدل على أن يونس كان يقدم الفرزدق عليهم جميعا. قال^(٤) : "كان يونس بن حبيب يفضل الفرزدق. ويعلل ذلك بأنه أكثرهم عدد قصائد طوال جياذ، ولم نجد للأخطل عشرا بهذه الصفة، ووجدنا لجرير ثلاثا بهذه الصفة". ولكنه لم يذكر مصدر الخبر، ولم أجده في موضع آخر. وأخشى أن يكون الأمر اختلط فيه بين الفرزدق والأخطل، إذ أن ما حكاه عن الفرزدق ينطبق على ما أوردته آنفا عن الأخطل. وأخشى أيضا أن يكون هذا الخبر قد خلط إلى جانب ذلك كلام يونس بتعليق أبي عبيدة عليه حين قال^(٥) : "فنظرنا في ذلك، فوجدنا للأخطل عشرا بهذه الصفة، وإلى جانبها عشرا إن لم تكن مثلها فليست دونها، ووجدنا لجرير بهذه الصفة ثلاثا؟".

وما عثرنا عليه من نقد تطبقى عند يونس قليل كل القلة. فقد عاب صورة

(١) الأغاني ٨ : ٣٩٢.

(٢) الأغاني ٨ : ٥ .

(٣) الطبقات ٢٥١ .

(٤) تاريخ النقد العربي ٨٩. وانظر ما يضعف هذا الخبر عند ابن سلام ٣١٥، والمرزبانى فى الموشح ١١٦.

(٥) الأغاني ٨ : ٢٩٢.

رسمها امرؤ القيس بأنها غير حقيقية. قال ابن سلام^(١): " أنشدت يونس النحوى
هذا البيت الذى لامرى القيس:

إذا ما الثريا فى السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصل
فزوى وجهه وجمع حاجبيه وقال: أخطأ مع إحسانه، إن الثريا لا تعترض، إنما
الاعتراض للجوزاء، هلا قال كما قال ذو الرمة:

وردت اعتسافا والثريا كأنها على قمة الرأس ابن ماء مخلق".

وعاب فى قول ثان لفظا استخدمه الأعشى، وفضل عليه أبياتا لمروان بن أبى
حفصة من نفس روى شعر الأعشى ووزنه. قال المرزبانى^(٢): "حدثنا الأصمعى
قال : كنا فى حلقة يونس فجاء مروان بن أبى حفصة فقال: أيكم يونس؟ فأومأنا
إليه فجلس. فقال: أصلحك الله، إنى أرى أقواما يقولون الشعر لأن يكشف أحدهم
عن سوءته فيمشى فى الطريق أحسن به من أن يظهر مثل ذلك الشعر، وقد قلت
شعرا أعرضه عليك، فإن كان جيدا أظهرته، وإن كان ردينا سترته. وأنشده:

طرتك زائرة فحى خيالها بيضاء تخلط بالحياء دلالتها
فقال له: يا هذا، اذهب فأظهر هذا الشعر، فأنت والله فيه أشعر من الأعشى.
يريد فى قوله:

رحلت سمية غدوة أجهالها ...

فقال له مروان: قد سؤتى وسررتنى، فأما الذى سررتنى به فلارتضائك الشعر،
وأما الذى سؤتى به فلتقديمك إياى على الأعشى. قال: نعم، إن الأعشى قال:

(١) الطبقات ٧٣. ابن منظور: نثار الأزهار ١٠٩.

(٢) الموشح ٥٥. معجم الأدباء ٢٠ : ٦٦.

فرميت غفلة عينه عن شاته فأصبت حبة قلبها وطحالها
والطحال لا يجعل في شيء إلا أفسده، وأنت لم تقل ذلك". وأحب أن أشفع
هذا الخبر بشك فيه، إذ سبق أن ذكرت أن يونس أبي أن يستمع إلى القصيدة،
وأمهل الشاعر إلى أن يأتي خلف الأحمر ليكون هو الحكم. وهناك مصادر ترى أن
خلفا هو صاحب هذا القول.

ونخرج من دراسة النقد عند يونس بصورة عن الرجل، تبرز بعض الجوانب
فيه، وتغفل بعضها الآخر. فتبرز لنا الصورة هوى الرجل، وأين يتجه مزاجه.

فهو يحب من الشعر: ما كان من حيث المضمون كثير الأخبار كشعر
الفرزدق، أو ما نحا للعتة وحاتا على الخلق الكريم مثل شعر عدى بن زيد العبادي؛
ومن حيث الشكل وافر الرونق والعدوية كشعر الأخطل، محكما متلاحما كشعر ابن
قيس الرقيات وابن الزبيرى، والأخطل أيضا الذى كان يعنى بتهديب شعره.

قال ابن سلام^(١): " سمعت يونس وقد تمثل بهذا البيت:

أيها الشامت المعير بالدهـ — أنست المسيرا الموقور
أم لديك العهد الوثيق من الأيا م ؟ بل أنست جاهل مفسرور

فقال: لو تمنيت أن أقول شعرا ما تمنيت إلا هذه، أو مثل هذه".

وأقف أمام ما ذكره الجاحظ أن يونس كان يحب من الشعر غير المصنوع ولا
الحبر، فيأتى بعضه سامى الارتفاع وبعضه الآخر ساقطا، كما كان تلميذه
الأصمعي^(٢) يحبه كذلك. فان أكثر ما بين يدي من أقوال يعارض هذا التصريح.

(١) الطبقات ١١٨.

(٢) ابن سلام ١٠٥. ابن رشيقي ١٠٧.

فتفضيل الرجل لزهير بن أبي سلمى، الذى كان أكبر رأس فى مدرسة عبيد الشعر، حتى قال عنه^(١) "أهل النظر: كان زهير أحصفهم شعرا، وأبعدهم من سخف، وأجمعهم لكثير من المعنى فى قليل من المنطق، وأشدهم مبالغة فى المدح، وأكثرهم أمثالا فى شعره"؛ وتقديمه للأخطل الذى نظره أستاذه أبو عمرو^(٢) بالنابغة من الجاهليين، الذى احتج من فضله بأنه^(٣) " كان أحسنهم ديباجة شعر، وأكثرهم رونق كلام، وأجزلم بيتا، كأن شعره كلام ليس فيه تكلف" ؛ وتأخير جريير الذى لم يكن يرؤى فى شعره^(٤) ؛ كل ذلك يدل على أن التوفيق خان الجاحظ فى قوله، وأنه ربما أراد الأصمعى فذكر يونس سهوا.

وتبرز لنا الصورة المنهج الذى كان يؤثره الرجل فى النقد، فقد كان يعتمد أكثر ما يعتمد على الموازنة. قال ابن دريد^(٥) : " قيل ليونس أو خلف: بم تعرف الشعر الجيد؟ فقال: بالششقلة. قال: الششقلة: أن تزن الدينار بآزاء الدينار لتنظر أيهما أثقل، ولا أحسبه عربيا محضا".

وكان عند الموازنة يبحث عن آراء السابقين ممن درسوا كلام العرب، وألفوه، وعاشوه، فعرفوا مسالكه ودروبه، وهم البدو وعلماء العربية. ولم يكن يتقبل أقوالهم على علاقتها، بل رفض بعضها كما فعل مع ابن أبي إسحاق.

وكان يقيم مقارنته بين الشعراء، وتفضيله أحدهم على نظيره، على عدة

(١) ابن سلام ٥٣.

(٢) ابن سلام ٥٥.

(٣) ابن سلام ٤٦. وانظر وصف يونس وأبي عبيد السابق لشعره.

(٤) ابن سلام ٣١٥.

(٥) الجمهرة ٣ : ٣٤٤. الزهر ١ : ٢٧٨.

أسس كشف عنها في حديثه عن العجاج والأخطل. الأساس الأول كثرة ما أصدر من قصائد. وتزداد هذه القصائد قيمة عند طولها، حتى أشاد بأن أرجوزة العجاج بلغت متى بيت. والأساس الثاني الجودة. ولم يسكت الرجل عند ذلك، بل أبان لنا بعض المظاهر التي نعتد عليها في الحكم بالجودة. فكانت عنده تجنب الفحش، وقد أتاه ذلك من الجانب الخلقى الذي التزمه في حياته. وكانت تجنب السقط، وهو ما عبر عنه بطريقة أخرى حين قال: "ليس في شعره شيء يستطيع أحد أن يقول: لو كان في مكانه غيره لكان أجود".

ونحن عند التأمل في هذين الأساسين اللذين وضعهما للمفاضلة بين الشعراء نتبين أنهما أهم الأسس التي اتخذها محمد بن سلام بعد ذلك مقياسا لتقسيم الشعراء إلى طبقات. فكان يونس أهدى إلى تلميذه أهم عمدة كتابه الذي يعد أحسن ما أصدره العرب في النقد في عصره. حقا، اعتمد ابن سلام على كثيرين من العلماء السابقين على يونس، والمعاصرين له، واللاحقين؛ ووسع أسس يونس فكشف فيها عما لم يفطن الرجل، ولكن ذلك كله لا ينقص من قدر يونس، وخاصة إذا أضفنا ما أدلى به من أحكام في انتحال الشعر اتخذها ابن سلام أيضا مع غيرها عمادا لما أقام به الدنيا وأقعدا في أقواله في هذا الصدد.

ويبدو أن يونس كان على حظ كبير من قوة الملاحظة، أعانه على التنبه إلى أشياء اعتمد عليها في نقده. فقد كان القدماء يحكون الخبر التالي في عجب، مستدلين به على توارده خواطر الشعراء على الصورة الواحدة. قال بلال بن جرير الشاعر^(١): "وقف الفرزدق على أبي جربد البصرة، وهو ينشد قصيدته التي هجا

(١) الأغاني ٨: ٣٤ - ٥. والعنفة: شعرات بين الشفة السفلى والذقن.

بها الراعى .. فلما بلغ إلى قوله:

* بها برص بجانب اسكتيها *

وضع الفرزدق يده على فيه وغطى عنفقته، فقال أبي:

* كعنفقة الفرزدق حين شابا *

فانصرف الفرزدق وهو يقول: "اللهم أخره، والله لقد علمت حين بدأ بالبيت أنه لا يقول غير هذا، ولكن طمعت ألا يأبه فغطيت وجهي، فما أغناني ذلك شيئا". أما يونس فيذهب إلى أبعده من ذلك ويقول: "ما أرى جريرا قال هذا المصراع إلا حين غطى الفرزدق عنفقته، فإنه نبهه عليه بتغطيته إياها".

كل ذلك يجعلنا لا نعجب حين نرى الناشئين من الشعراء يعرضون عليه شعرهم ليتعرفوا رأيه فيه، ويقوم منه ما يستحق التقويم، كما فعل مع مروان، وكما يبين الخبر التالي. روى محمد بن سلام عن وهب بن أبي إبراهيم التميمي البرجمي^(١): "جاشت نفسى بشيء من الشعر، فقلت ليونس: إن رجلا صاحب شعر، وقد جاشت نفسه بشيء منه، وهو يكره أن يخرج حتى تسمعه. قال: هات. فأنشدته فقال: من هذا العاض بظر أمه".

ولا نعجب أن يلقي يونس الشاء من القدماء والحدثين. قال ياقوت^(٢) فبالغ كما كان يبالغ القدماء: "كان يونس عالما بالشعر، نافذ البصر في تمييز جيده من رديئه، عارفا بطبقات شعراء العرب.. يرجع إليه في ذلك كله". وقال الدكتور محمد مندور^(٣) مقتصدا كما يفعل الحدثون: "وجد نقاد الشعر الجيرون كالضبي

(١) الموشح ٣٦٧.

(٢) معجم الأدباء ٢٠ : ٦٥.

(٣) النقد المنهجي عند العرب ١٧.

وخلف ويونس بن حبيب ثم الجمحى" . وقال طه أحمد إبراهيم^(١) : " فأما أبو عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب فلهما فى نقد الأدب آراء حسنة، ولهما فيه أثر جليل. يعدان فى النحويين، ويعدان كذلك فى اللغويين الذين وطفوا النقد الأدبى، ونظموا بحوثه، واستنبطوا مقاييسه".

النظم

قال الفيروز آبادى فى تعريف يونس بن حبيب^(٢) : "الأديب الشاعر". أما الأديب فهو لقب استحق أن يتحلى به بما كان له من مشاركة فى رواية الشعر، وجهد فى حكاية الأخبار التى استخرجها منه، وجهود مشرقة فى النقد. بل ربما استحقه بجهوده فى اللغة والنحو، إذ أطلق بعض المؤرخين على رجال العلمين الأخيرين رجال الأدب، وعدوا يونس "من الطبقة الخامسة فى الأدب"^(٣) أرادوا بذلك الجيل الخامس من اللغويين والنحاة. وصنيع ياقوت فى معجم الأديباء أشهر من أن يذكر، حين أدخل فيه كل صاحب تأليف على اختلاف العلوم والفنون. وأما الشاعر فلقد انفرد به الفيروز آبادى، وله مدلول واحد لم يضق فتنحسر عنه جماعة ولا اتسع فتندرج تحته كرة أخرى، مثل اللقب السابق. ولم يقع فى يدي بيت واحد صرح أحد الكتاب أنه من نظم يونس. بل إن العبارة التى أثبتها سابقا، وتحكى إعجاب يونس ببيت عدى بن زيد العبادى تبين فى جلاء أنه ليس بشاعر، قال: "لو تمنيت أن أقول شعرا .. " فهو لم يقل شعرا ولا تمنى أن يقوله. ولذلك أعتقد أن هذا القول سهو من الفيروز آبادى.

(١) تاريخ النقد الأدبى ٥٢.

(٢) تحفة الأبيہ ١١٠.

(٣) ابن خلكان ٢ : ٤١٦ . ابن العماد ١ : ٣٠١ .

الفصل الثاني

الدراسات اللغوية

اللغة

أعلن من أرخوا ليونس بن حبيب أنه أصدر أربعة كتب. إذا نظرنا إلى عناوينها جعلنا الرجل من العلماء باللغة والقرآن والأدب. فإذا أدمنا النظر وعمقناه، واستبطننا الظواهر، تبين أن الكتب الأربعة تعطينا صورة واحدة، هي صورة اللغوى. فالرجل كان لغويا في جهوده جميعا. اتخذ من اللغة وسيلة وغاية. فعنى بكل ما يجعله قادرا على الاحاطة باللغة، من شعر وأخبار ونقد، عارفا بمسالك العرب في حديثهم من نحو وصرف .

ولو وصلت إلينا هذه الكتب لمحتنا صورة وافية للرجل، ولكننا مضطرون الى استقصاء الأقوال المتناثرة منه في الكتب المختلفة للتعرف عليه، كما فعلنا فى بقية الحقول التى عنى فيها. ولحسن الحظ أن ما بقى من هذه الأقوال غير قليل .

وأحب للتيسير أن أعتد على تصنيف ما لهذه الأقوال. فأبدأ بما أدلى به من أقوال عن "اللفظ" . وحينئذ أجد أنه عاج فيما عاج صورة هذا اللفظ ومعناه. وكانت جل عنايته موجهة إلى هذه الصورة عندما تتعدد بالضبط مع بقاء مدلولها واحدا لا يتغير. روى ابن دريد عنه^(١): "تقول العرب: إن فى مض لمطعما، وفى مض، ومض: يريدون بذلك كسر الرجل شدقه عند سؤال الحاجة". وروى ابن

(١) الجمهرة ٣ : ٤٥٩ . وميم مض بالكسر والفتح والضم.

السكيت عنه^(١) : "أبى قائلها إلا تما وتما وتما - ثلاث لغات: يعنى تمام الكلام" و "أهل العالية يقولون: السم والشهد، وتميم تقول: السم والشهد"^(٢) .

وعالج صورة اللفظ عندما يتعدد ضبطها مع تعدد مدلولها أيضا. روى عنه ابن السكيت^(٣) : "غرفت غرفة واحدة، وفي الإناء غرفة، وحسوت حسوة واحدة، وفي الإناء حسوة".

وعالج صورة اللفظ عندما تتعدد هيئتها ويتغير تكوين حروفها، مع بقاء معناها واحدا. روى عنه ابن السكيت^(٤) : "ذوى العود يذوى ذويا، وقد ذأى يذأى ذأوا. وقال الأصمعي: ولا يقال ذوى. قال أبو عبيدة: قال يونس: هى لغة". وروى ابن دريد عنه^(٥) : "ذففه بالسيف وذافه وذفه: إذا أجهز عليه، وذفف عليه. وذففه وذافه وذفه وذفف عليه: إذا أجهزه، أى قتله".

ويبدو أنه خاف أن يقع تصحيف فى بعض الألفاظ، فأعلن عن الحروف التى خاف فيها ذلك بالعبارة. روى عنه ابن دريد^(٦) : "حفصت الشيء - بالصاد غير المعجمة: إذا ألقيته من يدي. وحفضته - بالصاد معجمة: إذا عطفته".

ووجه أكبر قسط من عنايته إلى الصيغ غير الشائعة من الألفاظ. فكان جل الأفعال التى أوردها فى كتبه، ونقلتها عنه المصادر الباقية من هذا النوع الذى قد نسميه تيسيرا "الغريب" مهما كان أصله أو استعماله. فنجد فى هذه الألفاظ:

(١) إصلاح المنطق ٩٨ . والناء بالكسر والضم .

(٢) إصلاح المنطق ١٠٤ . أهل العالية يضمون الحرف الأول وتميم تفتح .

(٣) إصلاح المنطق ١٢٩ . أدب الكاتب ٢٤٧ ، ٤٣٥ . الزهر ٢ : ٢٩٩ .

(٤) إصلاح المنطق ٢١٣ . أدب الكاتب ٣٦٦ .

(٥) الجمهرة ٣ : ٤٥٩ .

(٦) الجمهرة ٣ : ٤٥٩ .

الأفعال الثلاثية السالبة، مثل ما رواه ابن السكيت^(١): "وقد بعلم الرجل يعمل: اذا صار بعلا، حكاها يونس، وأنشد: * يارب بعلم ساء ما كان يعمل *، والثلاثية المضاعفة، مثل ما رواه ابن السراج^(٢): "زعم يونس أنهم يقولون: كع يكع. قال سيبويه: يكع أجود. وهو كما قال"، والثلاثية المعتلة مثل قول الفراء^(٣): "أنشدنا يونس النحوى :

رب حلم أضاعه عدم الما ل ، وجهل غطى عليه النعيم

بتخفيف غطى"، والأفعال المضارعة من الثلاثي مثل التي حكاها عنه الصغاني في الشوارد: "ينثر ما فى الجراب: مثل ينثر .. يخطر ببالي: لفة فى يخطر. علن الأمر: لفة فى علن وعلن"، والأفعال المزيدة مثل ما جاء فى الشوارد: "وترت الصلاة وتترتها: مثل أوترتها .. حشمته: أغضبته، مثل حشمته وأحشمته .. أحلأت السوق: مثل حالته".

ونجد منها المصادر مثل ما جاء فى الشوارد: "مصدر ألا - أى قصر - ألو - وألو .. الأبو: الأبوة .. قدمت البصرة قذمانا: أى قدوما"، والجموع مثل آخاء التي رواها ابن جني^(٤)، وما جاء فى الشوارد^(٥): "اللؤمان: اللثام .. يقال فى جمع سقب الناقة: سقبان، وفى جمع سقب البيت - وهو عموده: سقبان. يجمع الجدى جذيانا"، والأسماء مثل ما رواه ابن دريد^(٦): "قال يونس: القرطبي، مثل فعللى: الصرع على القفا. وأخبرنا أبو حاتم عن أبى عبيدة عن يونس: شهد أعرابيان الجمعة، فلما ركع الناس وجعلوا يتأخرون قال

(١) إصلاح المنطق ٢١٥ . العين مفتوحة .

(٢) الحلل ٦١ ظ . الكاف مفتوحة واستجاد سيبويه كسرهما .

(٣) السيرافي: أخبار النحويين البصريين ٢٨ . وانظر ابن ولاد: المقصور والمدود ٨١ .

(٤) الحصانص ١ : ٣٣٨ . سر الصناعة ١ : ١٦٦ .

(٥) وانظر ابن السكيت: اصلاح المنطق ٤١٣ .

(٦) الجمهرة ٣ : ٤٦١ . القاف مكسورة والراء ساكنة والباء مشددة مفتوحة .

أحدهما لصاحبه: اثبت فإنها القرطبي" وما رواه الصغاني: "العلي: العلة".
ونجد منها الصفات كالتى وردت فى الشوارد: "المصيف: الذى لا يتزوج
حتى يشمط .. هذا الأمر صُغْران حُقْران، أى صغير حقير .. إناء ثلثان: إلى الثلث،
كالنصفان: إلى النصف".

وتتعدد الأسباب التى تجعل هذه الألفاظ غريبة، ولكنها جميعا تؤول الى عدم
قياسيتها. فقد كان منها ما خضع لابدال أو إعلال غير قياسى، مثل قوله^(١):
"مضيت على الأمر مضوا، وهذا الأمر ممضو عليه" وقوله فى الشوارد: "الامتطال:
الانتطال .. التحليل: الاحليل .. يتم ياتم: مثل يتم"، وما لم يعمل على حين كان
واجبا إعلاله مثل قوله فى الشوارد: "أجويت القدر - وهذيل تقول: أجيتها -
أى غلفتها"، وما خضع لقلب غير قياسى مثل قوله فى الشوارد: "أمنق للعين: مآقها
.. امرأة مُفاضة: أى مفضاة. وأفاضها: أى أفضاها"، وما خضع لحذف غير قياسى
مثل قوله فى الشوارد: "المضرح: المضرحى، كالقطام للقطامى". فلان مضلع لهذا
الأمر: أى مضطلع، وكذلك مطلع".

وكان منها المشتقات غير القياسية، إذا أخذت من علم مثل قوله فى الشوارد^(٢):
"اختاف: أتى خيف منى، كأخاف وأخيف، مثل امتنى: إذا أتى منى"، أو أخذت من اسم
مثل قوله فى تهذيب الألفاظ^(٣): "تقول العرب: امرأة معجزة: يعنون ضخمة العجيزة"،
وقوله فى النوادر^(٤): فاكه من الفاكهة، مثل لابن وتامر" وقوله فى الجمهرة^(٥): "تقول

(١) إصلاح المنطق ٣٧٠ . الميم مضمومة والواو مشددة .

(٢) وانظر إصلاح المنطق ٣٤١، وتهذيب الألفاظ ٤٨٦، وشرح القوائد السبع الطوال ٥٣٥ .

(٣) ٣١٨ . الجيم مشددة مكسورة .

(٤) الزهر ٢ : ٢٧٥ .

(٥) ٣ : ٩٥ .

العرب: فلان أضيع من فلان: أى أكثر ضياعا منه. ولم يقله غيره".

وآن الأوان لأترك صورة الألفاظ، وألتفت إلى معناها، وأتبع الأمور التى عاجلها ونبه عليها فى هذا الجانب. وإذ نفعل نرى أنه فطن الى أن بعض الألفاظ استخدمت للدلالة على معان معينة مدة من الزمان ثم أهملت لسبب ما فلم يعد الناس يستخدمونها، وعدّ هذا النوع من الألفاظ ميتا. قال ابن دريد^(١): "الفطر: فعل ممت، يقال: مر فلان يغطر بيديه: مثل يخطر سوا، هكذا يقول يونس".

وقال أبو عبيدة^(٢) ليونس حين أنشده شعر الأسدى :

ومركضة صريحى أبوها تهان له الغلامه والغلام

أفتقول للجارية غلامه؟ قال: لا ، هذا من الكلام المتروك وأسمائه زالت مع زوال معانيها كالمربع والنشيطه، وبقي الصفايا".

وأورد المعانى غير المعروفة للألفاظ الشائعة فى معان أخرى. قال ابن دريد^(٣):
"سرق الشيء: اذا خفى. هكذا يقول يونس، وأنشد:

وتبيت منتبذ القذور كأنما سرقت بيوتك أن تزور المرقد

كأنما سرقت: أى خفيت". ولكنه لم يفعل ذلك حبا للغريب لذاته، بل كان يجعل معنى الشعر هو الحكم، فان اقتضى المعانى الغريبة أوردتها، وإلا رفضها رفضا باتا، قال أبو عبيدة^(٤): "قدم جعفر بن سليمان العباسى من عند المهدي الخليفة. فبعث إلى يونس بن حبيب فقال له: أنا وأمير المؤمنين اختلفنا فى هذا البيت:

(١) الجمهرة ٢ : ٣٦٩ .

(٢) الجاحظ: الحيوان ١ : ٣٢٩ .

(٣) الجمهرة ٢ : ٣٣٤ .

(٤) ابن خلكان ٢ : ٤١٧ .

والشيب ينهض في السواد كأنه ليل يصيح بجانيه نهار
فما الليل والنهار؟ فقال يونس: الليل الليل الذى تعرف، والنهار النهار الذى
تعرف. فقال: زعم المهدي أن الليل فرخ الكروان، والنهار فرخ الحبارى". وعقب
أبو عبيدة على الخبر بقوله: "القول فى البيت ما قاله يونس، والذى قاله المهدي
معروف فى الغريب من اللغة".

وعنى بالترادفات فأورد مجموعة منها كما كان يفعل أصحاب كتب النوادر
واللغات والرسائل اللغوية على الموضوعات. قال ابن دريد^(١): "قال يونس: تقول العرب:
فطر ناب البعير، وشقا نابه، وبقل، وبزغ، وصبا: بمعنى واحد". وروى أبو عبيدة عنه^(٢):
"رجل لباب ومصاص وخيار، ويقال للثنين والجميع على هذا اللفظ، لا يثنى ولا يجمع".
وكان يمحص الألفاظ قبل أن يحكم عليها بالترادف، فان وجد بينها أدنى
خلاف أخرجها من حظيرة الترادف. قال التبريزي^(٣): "قال يونس: الفقير: يكون له
بعض ما يقيمه. والمسكين: الذى لا شىء له. قال الراعى:

أما الفقير الذى كانت حلوبته وفق العيال فلم يترك له سبد
وقلت لأعرابى: أفقر أنت أم مسكين؟ فقال: لا والله بل مسكين".

ووجد مجموعة من الألفاظ تتقارب معانيها أو تترابط أو تتواصل، فأتى بها فى
الموضع الواحد، وكشف ما بينها من تقارب وتباعد حتى تتضح معانيها كل
الوضوح. قال السيرافى^(٤): "قال يونس: تقول العرب: الآل: من غدوة الى ارتفاع

(١) الجمهرة ٣ : ٤٦٠ .

(٢) شرح النقاظ ٤٦٨ .

(٣) تهذيب الألفاظ ١٥ . شرح ابن الأنبارى على المفضليات ٢٣٥ .

(٤) أخبار النحويين البصريين ٢٩ . نزهة الألباء ٣٢ .

الضحى الأعلى، ثم هو سراب سائر اليوم. وإذا زالت الشمس فهو فىء، وغدوة: ظل. وأنشد لأبى ذؤيب :

لعمرى لانت البيت أكرم أهله وأقعد فى أفيائه بالأصائل

.. وكان كذا وكذا الليلة، تقول ذلك إلى ارتفاع الضحى، وإذا جاوز ذلك قالوا: كان البارحة". وقال ابن دريد^(١): "قال يونس: تزوج فلان فى شرية نساء: يريد حيا تلد نساؤهم الإناث. وتزوج فى عرارة نساء: يريد حيا تلد نساؤهم الذكور". ولم يقصر يونس جهوده اللغوية على اللفظ المفرد بل تعداه إلى العبارة المركبة، التى شعر بغرابتها وأنها لا تسير على النحو الشائع من العبارات ذات المعنى الغريب أو الخاص أو الأدبى. قال السيوطى^(٢): "قال يونس: تقول العرب للرجل إذا لقى شرا: ثبت لبد، يدعون بذلك عليه، والمعنى دام ذلك عليه". وقال سيويوه^(٣): "ذو صباح: بمنزلة ذات مرة، تقول: سير عليه ذا صباح. أخبرنا بذلك يونس عن العرب" وقال التبريزى^(٤): "عن يونس: كسر فى ذلك أربا: إذا طمع فيه". وقال ابن السكيت^(٥): "قولهم (لا دريت ولا أتليت) يدعو عليه بأن لا تتلى إبله أى لا يكون لها أولاد، عن يونس.. قال يونس: يقال: ما ثملت شراى بشيء من طعام، ومعناه ما أكلت - قبل أن أشرب - طعاما، وذلك يسمى الثملة".

(١) الجمهرة ٣ : ٤٥٩ .

(٢) المزهر ٢ : ٢٦٨ .

(٣) الكتاب ١ : ١١٥ .

(٤) تهذيب الألفاظ ٤٣٨ .

(٥) إصلاح المنطق ٣٥٥ ، ٣٩٤ .

ونجد بينها ما عرفه اللغويون باسم الاتباع، قال أحمد بن فارس^(١): "يونس: إنه شقيح لقيح". وقيل في الشوارد: "هذا الشر والبر: إتباع".

ونجد بينها ما جاءته الغرابة من تشية ما حقه الأفراد، قال سيويه^(٢): "قد يثنون ما يكون بعضا لشيء. زعم يونس أن رؤية كان يقول: ما أحسن رأسيهما"، أو التذكير والتأنيث غير القياسيين، قال ابن سلام^(٣): "سمعت يونس - وقيل له: ما يعنى الراعى بقوله:

بييت الحية النضاض منه مكان الحب يستمع السرارا

قال يونس: الحب: القرط - أو قال: الشنف - والنضاض: الذى يخرج لسانه. قال يونس: يقولون: حية ذكر، ونعامه ذكر، وشاة ذكر، وبطة ذكر، ولم أسمعه منه". وجاء فى الشوارد عنه: "ليلة مقمر: مثل مقمرة .. يقال: كثرت مال فلان، يؤثنون المال كما أثوا القوم. قال الله تعالى: "كذبت قوم نوح المرسلين".

ودخلت الغرابة على بعض العبارات من تعدية الفعل اللازم. جاء فى الشوارد عنه: "مكرته: أى مكرت به .. وأماه: أى أوما إليه".

ونخلص من دراسة ما وصل إلينا من أقوال يونس بن حبيب بأنه كان يعنى باللفظ والعبارة. فعالج اللفظ من حيث صورته عندما تعدد سواء بقى معناه واحدا أو تعدد، والصور غير الشائعة له إذ اطرأ عليها تغيير غير قياسى، وعالجه من حيث معناه المهجور، أو الباقي: المعروف منه وغير المعروف، والمترادفات، والمعانى المتقاربة

(١) الاتباع والمزوجة ٣٥ ، ٣٧ ، ٧٤ .

(٢) الكتاب ١ : ٢٤١ .

(٣) الطبقات ٤٣٤ .

مع شيء من التباعد. وعالج العبارات المركبة، وخاصة ذات الصبغة الأدبية العالية، مع شيء من الغرابة .

وأدى به ذلك إلى الانفراد بكثير من الألفاظ، لم يشاركه أحد في روايتها عن العرب، كما رأينا ونرى في قول ابن جنى^(١): "لم يأت فيما عينه ولامه من موضع واحد (فعلت) إلا حرفان فيما علمت، وهما لببت فأنت لبب، حكاها يونس. قال لي أبو علي: قال أبو إسحاق: سألت عنها ثعلبا فلم يعرفها. وحكى قطرب: شررت، في الشر. وإنما تجنبوا (فعلت) بالضم في المضاعف استثقالا للضمة مع التضعيف. فأما حبذا فأصلها لعمري حَبَّبَ إلا أنها لما لزمت الإدغام فلم يظهر تضعيفها احتملت لذلك. وقد قالوا أيضا: دُمت فأنت تدم دمامة". وزاد ابن خالويه^(٢) إلى هذه الأفعال عززت الشاة: إذا قل لبنها .

ونستين من هذه الأقوال أن منهج يونس كان يعتمد على رصد هذه الظواهر التي تخضع لها الألفاظ والعبارات العربية، لأنه عدها من الظواهر اللغوية. فما هذه الغرابة التي تتسم بها إلا لكونها ليست على اللغة الشائعة، وإنما اللغات القبلية الأخرى. وقد أكثر من الإشارة إلى أن ما يتحدث عنه "لغة" دون أن يبين إلى أية قبيلة تنتمي. ولكنه فعل ذلك في بعض الأحيان، فأبان أنه عنى بلغة تميم والحجاز وأهل العالية وهذيل ويربوع (من بطون تميم) واليمامة وسليم .

وأعلن أنه يورد بعض ما يقول عن أستاذه أبي عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر، وعن مصدره الرئيسي رؤية، وأخذ بعضه الآخر عن الأعراب. قال أبو عمر^(٣):

(١) شرح المنصف ١ : ٢٤٠ . انظر الزهر ٢ : ٩٤ . يريد وزن كرم .

(٢) كتاب ليس ٢٦ .

(٣) شرح المنصف ٣ : ١٨ .

"سمعت يونس سأل أعرابيا .. فقال الأعرابي: كان أبي يقول: إني لأبفض الامعة من الرجال. فقالوا له: ما الامعة؟ فقال: الذي يقول: من يذهب حتى أذهب معه".

والحق إن يونس نفسه كان يميل إلى إيراد ما يورد من ألفاظ وتفسيرات في شكل إخباري أو حوارى، وكأنما وقعت بينه وبين الأعراب أحداث فعلا، وفي ظني أن كثيرا منها من تخيله. قال^(١): "صنع رجل لأعرابي ثريدة لياكلها، فقال له: لا تسقها ولا تشرمها ولا تقعرها. قال له: فمن أين آكل لا أباك؟ قال: كل من جوانبها. معنى تسقها: تقشر أعلاها. وتشرمها: تخزمها. وتقعرها: تأكل من أسفلها". وقال الأصمعي عن يونس^(٢): "سمعت أعرابيا يذكر مصدقا لهم في كلامه قال: فلمقه بعد ما نقه: أى محاه بعد ما كتبه".

فهو يحس أن ذلك يقرب الألفاظ، ويجيب الطلبة فيها، ويسر حفظها. بل إنه ليروى الطرف التي لا تحتوى على الغريب ولكنها تحبب فيه. قال^(٣): "كان جبلة بن عبد الرحمن يخرج إلى طبابخه الرقاع يستدعى بها الطعام، وفيها الألفاظ الغريبة الحوشية، فلا يدرى الطباخ ما فيها حتى يمضى بها إلى ابن أبي إسحاق ويحيى بن يعمر وغيرهما يفسرون ما فيها من الألفاظ. فاذا عرف الطباخ ما فيها أتاه بما استدعاه. فقال له يوما: ويحك إني أصوم معك. فقال له الطباخ: سهل كلامك حتى يسهل طعامك. فيقول: يا ابن اللخناء أفادع عربيتي لعيك".

(١) ذيل الأمالي ١١٩ . مجالس نعلب ٨ ، ٢٦ . المزهر ١ : ١٥٢ . المخصص ٥ : ١٢ . اللسان ١٠ : ٦٩ ، ١٥ : ٢١٤ .

(٢) الجمهرة ٣ : ١٦٣ . أبو الطيب: الأضداد ٦٤٩ .

(٣) ابن خلكان ٢ : ٤١٧ .

وتبين لنا أن يونس كان يحص الألفاظ قبل أن يحكم عليها. ولم يكن يأبى أن يعلن توقفه عندما يعجز عن بلوغ رأى يطمئن إليه فى لفظ ما. قال ابن سلام^(١): "سألت يونس عن قول الله جل وعز * كى لا يكون دولة * فقال: قال أبو عمرو ابن العلاء: الدولة فى المال، والدولة فى الحرب. قال: وقال عيسى بن عمر: كلتاها فى الحرب والمال سواء. قال: أما أنا فوالله ما أدرى ما بينهما".

وبلغ من تحييصه للألفاظ التى يدرسها أن أنكر مجموعة وصلت إليه ممن يجلبهم من الأعراب، وأخذ على رؤية وأبيه اشتقاقا اشتقاها على غير القياس عنده، حتى ضاق به رؤية، وقال له ما ذكرته سابقا. ونقد ألفاظ بعض الشعراء الذين أثنى عليهم. قال أبو الفرج^(٢): "سمعت ابن الأعرابى يقول: سئل يونس عن قول ابن قيس الرقيات:

ما مريوم إلا وعندهما لحم رجال أو يالغان

فقال يونس: يجوز يولغان، ولا يجوز يالغان. فقيل له: فقد قال ذلك ابن قيس الرقيات، وهو حجازى فصيح. فقال: ليس بفصيح ولا ثقة، شغل نفسه بالشرب بتكرير".

لا عجب إذن أن نرى يونس يشغل مرتبة لا تقل عن مرتبة أكابر علماء اللغة، وأن يناقشهم، فيأخذ عليهم أشياء، وتؤخذ عليه أشياء. حدث محمد بن سلام عنه أنه قال^(٣): "النحويون يغلطون فى ثلاثة أشياء: يقولون فى نكاح أم خارجة:

(١) إصلاح المنطق ١٢٩ . المزهري ٢ : ٢٩٩ . فى المال بضم الدال، والحرب بفتحها .

(٢) الأغاني ٥ : ٨٨ .

(٣) المبرد: الفاضل ١١٦ . الكامل ٤٠٧ .

خطب، فتقول: نكح، وإنما هو نكح، ويقولون: ابنة الحسن، وإنما هو الأخس مثل الأرز، ويقولون: ليس لحاقن رأى، وإنما هو ذهن".

وخطأ أستاذه عيسى مرة، قال محمد بن سلام^(١): "قلت ليونس بن حبيب: إن عيسى بن عمر قال: صحف أبو عمرو بن العلاء في الحديث: (اتقوا علي أولادكم فحمة المشاء) فقال بالفاء وإنما هي بالقاف. فقال يونس: عيسى الذي صحف ليس أبا عمرو، وهي بالفاء كما قال أبو عمرو لا بالقاف كما قال عيسى".

وخطأ أستاذه أبا عمرو في مرة أخرى. قال ابن سلام^(٢): "قال لي يونس بن حبيب: كان عيسى بن عمر يتحدث في مجلس فيه أبو عمرو بن العلاء. فقال عيسى في حديثه: ضربه فحشت يده، بالضم. فقال أبو عمرو: ما تقول يا أبا عمرو؟ فقال عيسى: فحشت يده. قال أبو عمرو: فحشت يده. قال يونس: والتي رده عنها جيدة، يقال: حشت يده بالضم، وحشت بالفتح، وأحشت".

وأزال عدة ظنون بالخطأ كانت تدور حول أبي عمرو^(٣).

ولكنه لم يسلم مما يؤخذ عليه. فقد سبق أن رأينا تلميذه سيبويه^(٤) يضعف الصيغة التي رواها في الفعل يكع. كذلك خطأه تلميذ آخر له في أحد الأفعال أيضا. قال أبو حاتم^(٥): "قال لي أبو زيد الأنصاري: سألتني الحكم بن قنبر عن تعاهدت ضيعتى أو تعهدت، فقلت: تعهدت، لا يكون إلا ذلك. فقال لي: فاثبت لي

(١) الزهر ٢ : ٣٦٠ .

(٢) مجالس العلماء ١٥٧ .

(٣) العسكري ٧٤ . أبو الطيب ١٩ . الزهر ٢ : ٣٩٩ .

(٤) ابن السراج ٦١ ظ .

(٥) السرايى ٤٢ .

على هذا اذا سألك يونس فقل نعم. وكان الحكم بن قنبر سأل يونس فقال: تعاهدت. فلما جئت سأله، فقال يونس: تعاهدت، فقلت: لا . وكان عنده ستة من الأعراب الفصحاء فقلت: سل هؤلاء. فبدأ بالأقرب إليه فالأقرب، فسألهم واحدا واحدا، فكلهم قال: تعهدت. فقال: يا أبا زيد، رب علم كنت سببه، أو شيئا نحو هذا". وعاب عليه أبو زيد أيضا اتساعه في اللغات^(١).

ولكن ذلك لا يجعلنا نغض من مكانة يونس، التي اعترف بها أهل اللغة أنفسهم. قال بعض الأعراب له^(٢) وقد استحسّن جوابا له: قضيت لك بالفقه، أى الفطنة. وروى يونس^(٣): "سألني جندل بن عبيد الراعى: ما معنى قول الراعى:

بييت الحية التضاض منه مكان الحب يستمع السرارا

ما الحب؟ فقلت: القرط. فقال: خذوا عن الشيخ فإنه عالم".

بل ساوى بعض العلماء بين يونس وأبى زيد نفسه. قال المبرد^(٤): "كان يونس من باب أبى زيد فى العلم باللغات". ويكفى للتدليل على دلالة هذا الحكم ومداه أن أورد القول التالى، الذى كان شائعا فى أوساط البصرة عن لغويها. كان يقال^(٥): "كان الأصمعى يحفظ ثلث اللغة، وأبو زيد ثلثى اللغة، والخليل بن أحمد نصف اللغة، وعمرو بن كركة الأعرابى يحفظ اللغة كلها".

(١) الزبيدي: الطبقات ١٨٢ .

(٢) شرح القوائد السبع الطوال ٢٩٥ .

(٣) ابن دريد: الاشتقاق ٣٨ .

(٤) السيرافى ٤١ . النزهة ٨٦ . الفهرست ٥٤ .

(٥) السيوطى: البغية ٢٥٤ .

النحو

إن أردنا أن نطلق على يونس بن حبيب لقباً علمياً واحداً لا نعدوه، لم نحتر، ولم نكثر البحث، فقد كفانا تلاميذه مؤونة ذلك، واقتصروا على تلقيه بالنحو .

وإذ كان الأمر كذلك، وكان الرجل من المؤلفين، كنا نتوقع أن يخلف لنا كتاباً أو أكثر، يدون فيه معارفه وآراءه النحوية. ولكن ذلك لم يكن، فإن كتبه التي نعرف عناوينها تستهدف اللغة أكثر من النحو. ويبدو أنه شابه معاصره الخليل بن أحمد في الاقتصار على تدريس النحو ومناقشة التلاميذ وعدم التدوين فكانت النتيجة عند الرجلين واحدة: أن آراءهما النحوية لم تصل إلينا إلا عن طريق تلميذ نابه، عنى بالنحو كل العناية، وسعى إلى إبانة آراء السابقين، وتدوينها، ومناقشتها، أعنى سيويه في الكتاب. فنحن لا نعرف مصدراً لآراء يونس غير الكتاب. وكان القدماء أنفسهم يشكون في كل رأى ينسب إلى يونس، ما لم يكن مستقى من الكتاب. فقد روى المبرد في المقضب رأياً عزاه ليونس، فبحث عنه علي بن عيسى الرمانى في الكتاب. وعندما لم يعثر عليه، عقب عليه قائلاً^(١): "ما أدري من أين لأبى العباس هذه الحكاية عن يونس؟!".

فالمصدر الرئيسى لما أنقله فى هذا الفصل من آراء يونس، بل المصدر الوحيد، كتاب سيويه، ثم أرفده بما أجده من مناقشات فى غيره من كتب النحو .

ويبدو أن سيويه أكثر من الأخذ عن يونس، وكان يرفع من قدره، فأكثر من النقل منه فى الكتاب، حتى ناهزت المرات التى ذكر اسمه فيها متى مرة^(٢). وطبيعى

(١) مازن المبارك: الرمانى النحوى ١٤٦ .

(٢) مهدي المخزومي: الخليل بن أحمد ٢١٩ . على النجدى ناصف: سيويه ٩٠ .

أن لا تكون هذه المرات ممثلة لجهد يونس النحوى كله، لأن الطبيعى ألا يشير سيويه إلى اسمه إلا حين يشد أو يخالف غيره أو ينفرد أو يأتي بأمر يستحق التنويه .

ونحن عندما ننظر فيما رواه سيويه عن يونس بعد استقصائه نجد فيه ظواهر عدة، تيسر علينا تصنيفه أصنافا مختلفة. وإذا كان المهم فى نظرنا أن نبرز جهد يونس الخاص، الذى يدل على تفكيره الذى انفرد به عن غيره، فإننى أجد إلى ما يساعد على ذلك من تصنيف .

فأجد أول ما أجد مجموعة من الآراء النحوية تحدث بها يونس حقا، ولكنها ليست من ابتكاره، وإنما من ابتكار أحد شيوخه. فيونس راوية لا مبدع لها، وإن كان اقتصاره على روايتها دون التعقيب عليها يدل على أنه مرتض لها. ولكن دلالتها عليه ثانوية، ولذلك أكشف عنها، وأورد أمثلتها، دون أن أطيل فى مناقشتها واستنطاقها .

وأقدم من روى عنه من شيوخه عبد الله بن أبى إسحاق، الذى تتبع أخباره مع الفرزدق خاصة. وأمثلة لما رواه عنه بقوله^(١): "فإن سميت المؤنث بـ "عمرو" أو "زيد" لم يجوز الصرف، هذا قول أبى إسحاق وأبى عمرو، فيما حدثنا يونس" .

وقال الأستاذ على النجدى ناصف^(٢): "أما جملة ما نقل سيويه عن ابن أبى إسحاق فكانت أربعا كلها من النحو والاستشهاد له، وسنده فى الرواية هنا يونس، كما كان سنده هناك فى الرواية عن أبى عمرو" .

وهذا القول فيه تعميم جائر. فليس صحيحا أن كل ما رواه سيويه عن ابن

(١) الكتاب ٢ : ٢٣ .

(٢) سيويه ٩٦ .

أبي إسحاق كان عن طريق يونس. فان سيويه أورد نقلين عنه مهملين، دون أن يلتفت أدنى التفات إلى من أخذهما عنه^(١)، وأورد نقلا ثالثا مكتفيا بكلمة مبهمه تبين أنه لم يأخذه عن الرجل مباشرة، قال^(٢): "ولو قلت: إياك الأسد، تريد من الأسد، لم يجوز كما جاز في (أن) إلا أنهم زعموا أن ابن أبي اسحاق أجاز هذا البيت في شعر:

إياك إياك المراء فانه إلى الشر دعاء وللشر جالب

كانه قال: إياك، ثم أضمر بعد إياك فعلا آخر فقال: اتق المراء".

كذلك يوجد في الكتاب نقول كثيرة تحوى أقوالا لأبي عمرو بن العلاء، أخذها سيويه عن يونس، مثل قوله^(٣): "زعم يونس أن أبا عمرو كان يقول: دارى من خلف دارك فرسخان، يشبه بقولك: دارك منى فرسخان، لأن (خلف) ما هنا اسم، وجعل (من) فيها بمنزلتها في الاسم".

ولكننى لا أستطيع هنا أيضا أن أعمم القول بأن مسنده فى الرواية عن أبى عمرو هو يونس وحده، كما قال الأستاذ على النجدى ناصف، وأعتمد فى ذلك على ما قاله هو فى كتابه^(٤): "وقد نقل سيويه عن أبى عمرو ٤٤ مرة، يذكر فى أكثرها أن الرواية عن يونس، ويضممر فى أقلها السند أو يغفله جملة"، وما قاله أيضا^(٥): "يقولون إن سيويه أخذ الحروف عنه (يريد عن أبى عمرو). وفى الكتاب

(١) الكتاب ١ : ٢٥٦ ، ٤٢٦ .

(٢) الكتاب ١ : ١٤١ .

(٣) الكتاب ١ : ٢٠٨ .

(٤) سيويه ٩٤ .

(٥) سيويه ٩٥ .

دليل على ذلك" . فان أقواله هذه تجعلني لا أزيد في قوله السابق ولا في قوله الآتي^(١): "أما النحو فالراجح أنه لم يأخذه عنه، فلم أر أحدا ذكره، وليس في الكتاب دليل عليه" .

وأتى سيويه ببعض الأقوال، التي أعلن أن أبا عمرو والخليل ويونس أتفقوا عليها. جاء في الكتاب^(٢): "إذا لقيت مفردا بمفرد أضفته الى الألقاب، وهو قول أبي عمرو ويونس والخليل، وذلك قولك: هذا سعيد كرز، وهذا قيس قفة قد جاء، وهذا زيد بطة .. فاذا لقيت المفرد بمضاف، والمضاف بمفرد، جرى أحدهما على الآخر كالوصف، وهو قول أبي عمرو ويونس والخليل، وذلك قولك: هذا زيد وزن سبعة، وهذا عبد الله بطة .." .

ولم يصرح سيويه: هل أخذ هذه الآراء من فم أبي عمرو أو من أحد تلاميذه. ولكن شهرتها وتداولها بين أكثر من تلميذ من تلاميذ أبي عمرو يجعلنا نرجح معرفة يونس بها، وبصدورها عن شيخه، ونرجح أن قوله هذا لا يعدو أن يكون ترديدا لما قال شيخه أمامه، وموافقة عليه .

وأورد سيويه مجموعة من أقوال شيخه: عيسى بن عمر، وأبي الخطاب الأخفش، وكشف أن يونس قال له ما يوافقها. جاء في الكتاب^(٣): "قد يقول بعض العرب: ارم، في الوقف، واغز، واخش، حدثنا بذلك عيسى بن عمر ويونس. وهذه اللغة أقل اللغتين. جعلوا آخر الكلمة حيث وصلوا الى التكلم بها بمنزلة الأواخر التي تحرك مما لم يحذف منه شيء، لأن من كلامهم أن يشبهوا الشيء بالشيء وإن لم

(١) سيويه ٩٥ .

(٢) الكتاب ٢ : ٤٩ . وانظر ٧ ، ١١ .

(٣) ٢ : ٢٧٨ .

يكن مثله في جميع ما هو فيه". وجاء أيضا^(١): "ما يجوز فيه الرفع مما ينتصب في المعرفة، وذلك قولك: هذا عبد الله منطلق، حدثنا بذلك يونس وأبو الخطاب عمن يوثق به من العرب".

والظاهر من كلام سيبويه أن كلا من الرجلين ذكر له رأيه على حدة. يؤكد لنا ذلك قول سيبويه في نقل آخر^(٢): "يقوى ذلك أن يونس وعيسى جميعا زعما..". وقوله^(٣) زعم أبو الخطاب أن العرب الموثوق بهم يقولون: أنا هذا، وهذا أنا.. وحدثنا يونس أيضا تصديقا لقول أبي الخطاب: أن العرب تقول: هذا أنت تقول كذا وكذا، لم يرد بقوله: هذا أنت، أن يعرفه نفسه كأنك تريد أن تعلمه أنه ليس غيره، هذا محال، ولكنه أراد أن ينبهه كأنه قال: الحاضر عندنا أنت، والحاضر القائل كذا وكذا أنت".

وإذن فلم يكن يونس هو الذى نقل هذه الأقوال الى سيبويه، بل سمعها سيبويه من أفواههم فى غالب الظن. ولكن الرجلين كانا شيخين ليونس، فهل سمع هو أيضا هذه الأقوال منهما. إن كان الأمر كذلك، كان ما رواه سيبويه عنه مجرد اتفاق مع ما سمعه من شيخه. وإلا فهو رأى خاص ليونس، اتفق مع آراء الرجلين. ولا شك أن من العسير أن نؤكد أحد الظنين، وإن كان الظن الأول أقرب الى الاحتمال.

وننتهى بهذا من الأقوال التى أعلن سيبويه أن يونس رواها له عن واحد من شيوخه، والتى رجحنا أنها كذلك، والتى يوجد احتمال أنها ليست من ابتداء الرجل. وننتقل الى هذا النوع الأخير من الأقوال، أو التى تدل ظواهر الأمور أنها

(١) ١ : ٢٥٨ .

(٢) ١ : ١٨٢ .

(٣) ١ : ٣٧٩ .

منه، إذ أننا لا نملك الدليل القاطع هنا أيضا أن يونس لم يكن مجرد راوية لهذه الأقوال أو بعضها غير أنه أغفل اسم الشيخ الذي يروى عنه. وكثيرا ما فعلوا ذلك. ومهما يكن من أمر، فنحن مضطرون الى الاعتماد على ما عندنا من أقوال، مهما كانت الأمور التي تشوبها. وانما أجبنا الى ذلك يونس نفسه إذ لم يعن باصدار كتاب يحفظ لنا أقواله. ولما كنا قد بدأنا الحديث بما رواه عن شيوخه، كان واجبا علينا أن نستمر فيه، ونبين أن الرجل لم يبلغ شخصيته أمامهم، وتقبل كل ما قالوا دون تمحيص أو مناقشة. بل كل الدلائل تدل أنه كان يعنى الفكر فيما يسمع، وأن هذا الفكر كان يؤدي به كثيرا الى الموقف المستقل .

وكما بدأنا بما رواه عن عبد الله بن أبي إسحاق آنفا، نبدأ هنا بما خالفه فيه. ويبدو أن إعجاب يونس بالفرزدق جعله يعارض شيخه في موقفه منه أو لا يتابعه فيه على الأقل، وخاصة أن الصلة بين الشيخ والتلميذ لم تدم طويلا فيما يبدو، أو لم تشتد أو اصرها. فتوقف مرة، موافقا في ذلك شيخه الآخر الذي كان يحترمه كل الاحترام. قال ابن سلام^(١): "قال يونس: وقال ابن أبي إسحاق في بيت الفرزدق:

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع
من المال إلا مسحنا أو مجرف

.. قال أبو عمرو بن العلاء: لا أعرف لها وجهها. وكان يونس لا يعرف لها وجهها. قلت ليونس: لعل الفرزدق قالها على النصب ولم يابه. فقال: لا، كان ينشدها على الرفع، وأنشدنيها رؤية بن العجاج على الرفع".

وعارض يونس ابن أبي إسحاق في مرة أخرى، إذ اهتدى الى وجه من التعليل لم يفتن إليه شيخه، قال ابن سلام^(٢): "أخبر يونس أن ابن أبي إسحاق قال

(١) الطبقات ١٩ . الموشح ١٠١ .

(٢) الطبقات ١٦ . الموشح ٩٩ .

للفرزدي في مديحه يزيد بن عبد الملك :

مستقبلين شمال الشام - تضرينا
بحابص كنديف القطن منشور
على عماننا يلقي وأرحلنا
على زواحف ترجي، مخها رير

قال ابن أبي إسحاق: أسأت، إنما هي (رير)، وكذلك قياس النحو في هذا
الموضع. وقال يونس: والذي قال جائر حسن .. " ذهب يونس إلى وقوع تقديم
وتأخير، والترتيب الطبيعي للعبارة: رير مخها .

وتعطينا هذه المعارضة واحدة من الخصائص التي تفرق بين الرجلين. فقد
وضح أن ابن أبي إسحاق كان يسرع إلى تخطيطه المتكلم مهما كانت فصاحته، وكان
نقاؤه العربي. أما يونس فيظهر غير ذلك، بل يبحث عن المنافذ التي تجعله يحكم
بالسلامة أولاً، فإن عجز عن العثور عليها، توقف حائراً، ولم يهرع إلى التخطيط .

وفي كتاب سيبويه مواضع تدل على أن يونس عارض أستاذه في غير شعر
الفرزدق، وفي آراء لم ينفرد بها بل تابعه فيها بعض أئمة النحو. جاء في الكتاب^(١):
"ومن هذا الترحم. والترحم يكون بالمسكين والبائس ونحوه ولا يكون بكل صفة ولا
كل اسم، ولكن ترحم بما ترحم به العرب. وزعم الخليل أنه يقول: مررت به
المسكين، على البدل، وفيه معنى الترحم. وبدله كبذل: مررت به أخيك .. وكان
الخليل يقول: إن شئت رفعته من وجهين، فقلت: مررت به البائس، كأنه لما قال:
مررت به، قال: المسكين هو، كما يقول مبتدئنا: المسكين هو، والبائس أنت. وإن
شاء قال: مررت به المسكين .. وفيه معنى الترحم كما كان في قوله: رحمة الله
عليه، معنى رحمة الله. فما يترحم به يجوز فيه هذان الوجهان، وهو قول الخليل ..

(١) ١ : ٢٥٥ .

وأما يونس فزعم أنه ليس يرفع شيئا من الترحم على إضمار شيء يرفع، ولكنه إن قال: ضربته، لم يقل أبدا إلا المسكين، يحمله على الفعل، وإن قال: ضرباني، قال: المسكينان، همله أيضا على الفعل، وكذلك: مررت به المسكين، يحمل الرفع على الرفع، والجر على الجر، والنصب على النصب، ويزعم أن الرفع الذي فسرنا خطأ، وهو قول الخليل وابن أبي اسحاق .

وروى سيويه^(١) واحدة من مسائل النعت السببي اختلف فيها يونس مع أستاذه عيسى بن عمر. فقد اتفق الاثنان على التفرقة فيه بين أنواع شتى. فرفعا ما كان غير منون دالا على علاج يُرى كالضارب والكاسر. أما الثابت غير الدال على علاج يرى كالأخذ والمخالط فاتفقا على نصبه إذا كان دالا على عمل واقع. ثم اختلفا في غير الواقع منه فذهب عيسى إلى تبعيته لما قبله، ويونس إلى أنه مرفوع. وقد خالفهما سيويه فذهب إلى أن الصفة الدالة على العمل تتبع ما قبلها في الاعراب، سواء أكانت منونة مثل (مررت برجل مخالط بدنه داء) أم غير منونة وأراد المتحدث معنى التنوين مثل (مررت برجل مخالطه داء)، وسواء أكانت الصفة دالة على علاج يرى أم دلت على عمل ثابت ليس فيه علاج، وسواء أدلت على عمل واقع أم عمل غير واقع. وأورد من الأدلة ما أبطل كل حجة للرجلين .

ولم يقف يونس عند هذا بل خالف أقرب شيوخه إلى قلبه، وأعظمهم في عينه: أبا عمرو بن العلاء. ولم يخالفه جاهلا برأيه، بل كان عارفا به وراويا له. جاء في الكتاب^(٢): "قال يونس: من صرف (هندا) قال: هذه هند بنت زيد، فنون (هندا) لأن ذا موضع لا يتغير فيه الساكن ولم تدركه علة، وهكذا سمعنا من العرب.

. ٢٢٨ : ١ (١)

. ١٤٨ : ٢ (٢)

وكان أبو عمرو يقول: هذه هند بنت عبد الله، فيمن صرف. ويقول: لما كثر في كلامهم حذفوه كما حذفوا (لا أدر) و (لم يك) و (لم أبل) و (خذ) و (كُل) وأشباه ذلك، وهو كثير". ولم يتدخل سيبويه في القولين، مقتصرًا على حكايتهما. ولعل السبب جواز الرأيين عنده، إذ روى كل من الرجلين عن العرب، فذكر أحدهما القاعدة العامة، وذكر الآخر ما يفعلونه على غير قاس للتخفيف .

وخالف يونس^(١) أستاذه في النسب إلى الأسماء المعتلة الآخر بالياء أو الواو مع سكون ما قبلهما. فقد روى هو نفسه أن أبا عمرو كان يقول في النسب إلى ظبية: ظبي. وخالفه وكان يقول في: ظبية: ظبوى، وفي دمية: دموى، وفي فتية: فتوى .

وقد فصل سيبويه المسألة فكشف عن جميع أركانها. فذكر أن هذه الأسماء إذا كانت خالية من تاء التأنيث اتفق جميع النحاة في النسب إليها، فقالوا في ظبي: ظبي، وفي غزو: غزوى. وعلل سيبويه ذلك بأن حرف العلة في هذه الألفاظ جرى مجرى الألفاظ الصحيحة ولم يُعل. وعلله الرضى الاستراباذي^(٢) بحصول الحذف بسكون العين وصحتها وعدم ما يجرى على التغيير .

فاذا اتصلت تاء التأنيث بها اختلف النحاة. إذ لم يفرق أبو عمرو بين الخالي من التاء والمتصل بها، وجعل النسب إلى ظبية: ظبي، وإلى غزوة: غزوى، أيضا. وكان تعليق سيبويه على هذا الرأي أنه القياس، ولا ينبغي أن يكون القياس إلا هذا. وعلله بأننا عددنا الكلمة مثل الكلمات غير المعتلة، وهذه الكلمات لا يؤثر فيها وجود تاء التأنيث أو خلوها منها، فكذلك ما مائلها من كلمات معتلة .

(١) الكتاب ٢ : ٧٤ . الخصائص ٢ : ١٠٦ .

(٢) شرح الشافية ٢ : ٤٨ .

أما يونس فخالف بين الكلمة عند دخول التاء عليها، وقال إننا إذا نسبنا إلى ظبية قلنا: ظبوى، وإلى فتية قلنا: فتوى، وإلى دمية قلنا: دموى، من اليائى، وإذا نسبنا من الواوى إلى غزوة قلنا: غزوى، وإلى عروة: عروى، فلا فرق عنده بين الواوى واليائى .

وكان المعقب على الرايين فى هذه المرة الخليل بن أحمد، فأعلن أن الأول أقيسهما وأعربهما. ولكنه لم يرفض رأى يونس جملة وتفصيلا، بل قبله فى الكلمات اليائية. وعللها بأنهم شبهوا فعلة بفعلة، وفعلة بفعلة، وفعلة بفعلة^(١)، لأنك لو بنيت فعلة من بنات الواو لصارت ياء، فلو أسكنت العين على ذلك المعنى لثبتت ياء ولم ترجع إلى الواو، فلما رأوها متشابهة الأواخر جعلوا النسب إليها واحدا. واعتمد فيه أيضا على السماع من العرب إذ أنهم نسبوا إلى بنى البطية فقالوا بطوى .

وقصر الرضى الاستزاباذى هذا التغيير على الثلاثى لأن مبناه على الخفة، فطلبت بقدر الإمكان، وعلى ما فيه التاء من الكلمات، لأن حذفهم التاء عند النسب جرأهم على تحريك الساكن، مع قصد التفرقة بين المذكر والمؤنث. فأجروا التغيير على الكلمات اليائية لتخف بقلب الياء واوا ثم حملوا الكلمات الواوية عليها طردا للباب .

ورفض الخليل رأى يونس فى الكلمات الواوية، وقال: لا أقول فى غزوة إلا: غزوى، وفى غدوة إلا غدوى. وعلل رأيه بأن فعلة وفعلة من الواوى لا تشبه فعلة وفعلة، وأن فعلة من الواوى إذا كانت واحدة فعل تكون بالياء، ولو لم تكن على فعل للزم الحرف الذى قبلها التحريك ولم تشبه غدوة، وإن أسكنت ما قبل الواو فى فعلة من الواوى الذى ليس واحده فعل فحذفت الهاء لم تغير الواو لأن ما قبلها

(١) الأوليان بفتح الفاء، والثانيان بضمها، والثالثان بكسرها، والعين الأولى فى كل مجموعة ساكنة وفى الثانية متحركة .

ساكن. واعتمد أيضا على السماع فذكر أن العرب حين نسبوا الى بنى جروة قالوا: جروى. ووافقه سيبويه فى رأيه هذا .

وزاد الاسترابادى علة أخرى تفرق بين اليائى والواوى من هذه الكلمات، قال: "ذوات الياء بتحريك عينها تنقلب ياؤها واوا، فتخف شيئا، وإن كان يحصل بالحركة أدنى ثقل، لكن ما يحصل بها من الخفة أكثر مما يحصل بالحركة أدنى ثقل، وأما ذوات الواو فيحصل بتحريك عينها ثقل من دون خفة".

واختلف يونس^(١) مع أستاذه عيسى وأبى عمرو فى تصغير معتل العين واللام، وأدلى برأى فضله سيبويه على ما جاء به الرجلان. ذهب عيسى الى أن تصغير أحوى هو: أحى، مصروفا. ولكن سيبويه خطأ هذا القول، وقال: "لو جاز ذا لصرفت (أصم) لأنه أخف من أحمر، وصرفت رأس إذا سميت به ولم تهمز فقلت: أرس".

وذهب أبو عمرو الى أن تصغيره هو: أحي. فخطأه سيبويه أيضا وقال: "لو جاز ذا لقلت فى عطاء: عطى، لأنها ياء كهذه الياء وهى بعد ياء مكسورة، ولقلت فى سقاية: سقىة، وشاؤ: شوى". أما يونس فذهب الى أن تصغيره هو: أحي. فارتضى سيبويه هذا الرأى وعقب عليه قائلا: "هو القياس والصواب"، وعلل ذلك بقوله: "لأن هذه اللام (يريد لام الكلمة) إذا كانت بعد كسرة اعتلت واستثقلت فى .. غير المعتل. فلما كانت كسرة فى ياء قبلها ياء التحقير ازدادوا لها استثقالا فحذفوها .. ولا تصرفه لأن الزيادة ثابتة فى أوله، ولا يلتفت إلى قلته كما لا يلتفت إلى قلة يضع".
نتبين مما سبق أن يونس بن حبيب عنى بما كان لشيوخه من آراء لغوية ونحوية، فاحتفظ بها ورواها لتلاميذه. وتسود هذه المرويات الظواهر التى سادت مروياته فى

(١) الكتاب ٢ : ١٣٢ .

الحقول الأخرى. فقد كان أكثر إقبالا على أبي عمرو، ورواية عنه، واتفاقا معه. ففاق ما رواه عنه كل ما روى عن بقية شيوخه مجتمعين، بل بلغ أضعافه، وبالرغم من إعجابه بعبد الله بن أبي إسحاق، وقف منه موقف النقد، وعارضه في كثير مما قاله، معارضة مهمة، إذ تعتمد على نظرة كل من الرجلين إلى التراث العربي. ووقف من عيسى موقفا متوسطا، فلم يقلل من الرواية عنه ويكثر من الاعتراض عليه كما فعل مع ابن أبي إسحاق، ولم يحتف به احتفاءه بأبي عمرو. أما روايته عن أبي الخطاب الأحمش فمن القلة بحيث لا تيسر لنا سبيلا إلى تصور العلاقة بينهما .

وحان الوقت الآن لنضع يونس بين معاصريه، أو إن تحرينا الدقة: لنضعه إلى جوار تربه الخليل بن أحمد، ليلقى كل منهما الضوء على الآخر، ويكشف من جوانب شخصيته ما لا تكشفه دراسة الفرد على ضوء من شيوخه .

وأتبع النهج نفسه الذى اتبعته فى هذا الفصل كله. فأستهل الحديث بالآراء التى اتفق فيها الرجال. وقد تبين لنا أنهما اتفقا فى بعض الآراء التى أخذها منفردين أو مجتمعين عن شيخهما أبي عمرو. ولكن يتجلى من كتاب سيبويه أنهما اتفقا أيضا فى كثير من الآراء، التى لا يوجد دليل أو إشارة على أنهما تلقياها عن شيخ لهما. مثال ذلك قول سيبويه^(١): "سألت الخليل ويونس عن نصب قول الصلتان العبدى:

أيا شاعرا لا شاعر اليوم مثله جريز، ولكن فى كليب تواضع
فزعا أنه غير منادى، وإنما انتصب على إضمار، كأنه قال: يا قائل الشعر
شاعرا. وفيه معنى حسبك به، كأنه حيث نادى قال: حسبك به، ولكنه أضمره كما

(١) الكتاب ١ : ٣٢٨ ، وانظر ٣٧٢ .

أضمروا في قوله: تالله رجلا، وما أشبهه". وفي بعض الأحيان وقع الاتفاق بين الرجلين في النتيجة التي وصلا إليها. ولكننا لا نعرف العلل التي أدت بيونس إلى نتيجته، على حين كشف سيويه عن علل الخليل. قال^(١): "هذا باب ما لا يجوز أن يندب، وذلك قولك: وارجله، ويا رجلاه. وزعم الخليل ويونس أنه قبيح وأنه لا يقال. وقال الخليل إنما قبح لأنك أبهمت، ألا ترى أنك لو قلت: واهذاه، كان قبيحا لأنك إذا نذبت فإثما ينبغي لك أن تفجع بأعرف الأسماء، وأن تختص فلا تبهم لأن الندبة على البيان ..".

وفي بعض الأحيان أعلن اتفاق الرجلين، وأتى بالعلة مغفلة فلم يبين هل هي من عنده أو من عند أحد الرجلين أو من عندهما معا، ولعل الفرض الأخير أرجحها، قال^(٢): "هذا باب ما يكرر فيه الاسم في حال الاضافة، ويكون الأول بمنزلة الآخر، وذلك قولك: يا زيد زيد عمرو، ويا زيد زيد أخينا، ويا زيد زيدنا. زعم الخليل ويونس أن هذا كله سواء، وهي لغة للعرب جيدة. وقال جرير:

يا تيم تيم عدى لا أبا لكم لا يلفينكم في سواة عمر

.. وذلك لأنهم قد علموا أنهم لو لم يكرروا الاسم صار الأول نصبا، فلما كرروا الاسم توكيدا تركوا الأول على الذي كان يكون عليه لو لم يكرروا".
والتزم سيويه في أكثر الأحيان الأقوال التي اتفق عليها الرجلان، وعدها القياس لما تتعلق به من قواعد، إذ أن الكلام العربي الفصيح يندرج تحتها، والعلماء الثقات لا يختلفون معها. قال^(٣): "أما ما جاء مثل تَوَلَّب ونهشل فهو عندنا من نفس

(١) الكتاب ١ : ٣٢٤ . وانظر ١ : ٤٦١ ، ٢ : ١٥٥ .

(٢) الكتاب ١ : ٣١٤ ، وانظر ٣٧٥ .

(٣) الكتاب ٢ : ٣ . وانظر ١ : ٤٧٤ ، ٢ : ١٣ ، ٤٢ ، ٩٦ ، ١٠٧ ، ١٣٣ ، ٢٨٣ ، ٤١٠ .

الحرف مصروف، حتى يجيء أمر يبينه، وكذلك فعلت به العرب، لأن حال التاء والنون في الزيادة ليس كحال الألف والياء لأنهما لم تكثرا في الكلام زائدتين ككثرتهما، فإن لم تقل ذلك دخل عليك أن لا تصرف نهشلا ونهسرا. فهذا قول الخليل ويونس والعرب". وقال^(١): ". وهذا قول يونس والخليل ومن رأينا من العلماء".

وكان ينافح عن رأيهما ويدحض ما خالفه من آراء، كما فعل في الضمائر الواقعة بعد لولا، قال^(٢): "إذا أضمرت الاسم فيه جُر، وإذا أظهرت رُفع. ولو جاءت علامة الإضمار على القياس لقلت، لولا أنت، كما قال سبحانه (لولا أأنتم لكننا مؤمنين) ولكنهم جعلوه مضمرا مجرورا. والدليل على ذلك أن الياء والكاف لا تكونان علامة مضمرة مرفوعة. قال الشاعر:

وكم موطن لولاي طحت كما هوى بأجرامه من قلة النيق منهوى

وهذا قول الخليل ويونس. وأما قولهم: عساک، فالكاف منصوبة. قال الراجز:

* يا أبنا علك أو عساكا *

والدليل على أنها منصوبة أنك إذا عنيت نفسك كانت علامتك (نى) قال

عمران بن حطان:

ولى نفس أقول لها إذا ما تنازعنى: لعلى أو عسانى

فلو كانت الكاف مجرورة لقال: عسای. ولكنهم جعلوها بمنزلة (لعل) فى هذا الموضع. فهذان الحرفان لهما فى الإضمار هذه الحال، كما كان للذن حال مع

(١) الكتاب ٢: ٤٢ .

(٢) الكتاب ١: ٣٨٨. وانظر المسألة ٩٧ فى كتاب الإنصاف لابن الأنبارى ص ٦٨٧. وفى الرماني لمآزن

المبارك ٢٨٧ .

غدوة ليست مع غيرها، وكما أن لات إن لم تعملها في الأحيان لم تعمل فيما سواها فهي معها بمنزلة ليس فاذا جاوزتها فليس لها عمل .. وزعم ناس أن الياء في لولاي وعساني في موضع رفع، جعلوا لولاي موافقة للجعر و (نى) موافقة للنصب كما اتفق الجعر والنصب في الهاء والكاف. وهذا وجه ردىء لما ذكرت لك، ولأنك لا ينبغي لك أن تكسر الباب وهو مطرد تجد له وجهها، وقد يوجه الشيء على الشيء البعيد إذا لم يوجد غيره، وربما وقع ذلك في كلامهم".

فلا عجب إذن أن يعترف سيويه من هذه المسائل التي اتفقا فيها. وقد اعترف بذلك في أبواب من التصغير، فقال^(١): "وجميع ما ذكرنا قول يونس والخليل" وقال في أبواب من النداء^(٢): "اعلم أن كل شيء ابتدأناه في هذين البابين أولا هو القياس، وجميع ما وصفنا من هذه اللغات سمعناه من الخليل ويونس عن العرب".

وكان طبيعيا أن يختلف الرجلان في بعض المسائل، وكل منهما على ما هو عليه من تفكير واجتهاد واستقلال بالرأى. وقد أورد سيويه جملة من هذه المسائل التي اختلفا فيها. واقتصر في قليل منها على دور الراوية، فلم يرجح واحدا منها على الآخر، إذ صح لديه القولان. قال^(٣): "سألت الخليل عن قوله:

ألا رجلا جزاه الله خيرا
يدل على محصلة تبيت

فزعم أنه ليس على التمنى، ولكنه بمنزلة قول الرجل: فهلا خيرا من ذلك، كأنه قال: ألا تروننى رجلا جزاه الله خيرا . وأما يونس فزعم أنه نون مضطرا. وزعم أن قوله: (لا نسبَ اليوم ولا خلَّة) على الاضطرار .. والذي قال مذهب".

(١) ٢ : ١٢٧ ، ١٢٨ .

(٢) ١ : ٢١٨ .

(٣) ١ : ٣٥٦ .

ولكن سيبويه مال في أكثر المواضع التي اختلفا فيها إلى رأى الخليل، وفضله على رأى يونس. قال مثلاً^(١): "إذا حقرت رجلاً اسمه (قبائل) قلت: قبيل، وإن شئت قلت: قبيل، عوضاً مما حذف. والألف أولى بالطرح من الهمزة لأنها كلمة حية لم تجئ للمد، وإنما هي بمنزلة جيم مساجد وهمزة برائل، وهي في ذلك الموضع والمثال، والألف بمنزلة ألف عذافر، وهذا قول الخليل. وأما يونس فيقول: قبيل، يحذف الهمزة إذ كانت زائدة كما حذفوا ياء قراسية وياء عفاربية. وقول الخليل أحسن كما أن عفرية أحسن".

وحكم على رأى يونس في بعض الأحيان أنه مذهب، ولكن السماع عن العرب يخالفه. قال^(٢): "سألته عن قوله: من دون، ومن فوق، ومن تحت .. فقال: أجروا هذا مجرى الأسماء المتمكنة لأنها تضاف وتستعمل غير ظرف. ومن العرب من يقول: من فوق، ومن تحت، يشبهه بقبل وبعد .. وكذلك من أمام، ومن قدام، ومن وراء .. وزعم أنهم نكرات كقول أبي النجم:

* يأتى لها من أيمن وأشمل *

وزعم أنهم نكرات إذا لم يضمن إلى معرفة كما يكون أيمن وأشمل نكرة. وسألنا العرب فوجدناهم يوافقونه .. وأما يونس فكان يقول: من قدام، ويجعلها معرفة. وزعم أنه منعه من الصرف أنها مؤنثة .. وهذا مذهب، إلا أنه ليس يقول أحد من العرب. وبالرغم من ذلك توجد بعض المواضع التي فضل فيها سيبويه قول يونس على قول الخليل. وعلل ذلك بأن رأى الخليل خالف المؤلف من كلام العرب، قال

(١) ٢ : ١١٧ . وانظر ١٣٧ .

(٢) ٢ : ٤٦ - ٧٠ .

فى تصغير سفرجل وفرزدق ونحوهما^(١): "فتحقير العرب هذه الأسماء سُفَرج وفريزد .. وإن شئت ألحقت فى كل اسم منها ياء قبل آخر حروفه عوضاً. وإنما حملهم على هذا أنهم لا يحقرون ما جاوز ثلاثة أحرف إلا على زنته وحاله لو كسروه للجمع، إلا أن نظير حرف اللين الثالث الذى فى الجمع الياء فى التصغير، وأول التصغير مضموم، وأول الجمع مفتوح .. فالتصغير والجمع بمنزلة واحدة فى هذه الأسماء .. وإنما منعهم أن يقولوا: سفيرجل، أنهم لو كسروه لم يقولوا: سفارجل .. وهذا قول يونس. وقال الخليل: لو كنت محقراً هذه الأسماء لا أحذف منها شيئاً - كما قال بعض النحويين - لقلت: سُفَرجل - كما ترى - حتى يصير بزنة دينير. فهذا أقرب وإن لم يكن من كلام العرب". وقد انتشر رأى يونس هذا، وكانت له الغلبة فى كتب النحو بعد أن ارتضاه سيويه.

وحكم أحيانا على رأى الخليل بالبعد^(٢)، ورأى يونس بالقوة. قال مثلاً^(٣): "سألت الخليل عن القاضى فى النداء، فقال: أختار: يا قاضى، لأنه ليس بمنون كما أختار هذا القاضى. وأما يونس فقال: يا قاض. وقول يونس أقوى، لأنه لما كان من كلامهم أن يحذفوا فى غير النداء كانوا فى النداء أجدر لأن النداء موضع حذف: يحذفون التنوين، ويقولون: يا حار، وصاح، ويا غلام .." ويبدو أن سيويه غفل عن أن حذف الياء من (قاضى) كان بسبب التنوين، فلما يحذف التنوين لا يوجد سبب للحذف.

وتدلنا هذه الأمثلة القليلة من الفيض الغزير فى كتاب سيويه أن يونس بن حبيب كان شخصية مستقلة، تأخذ من شيوخها، فتتفق معهم بقدر وبعد تمنع، وتختلف

(١) ٢ : ١٠٦ .

(٢) ١ : ٤٢٩ .

(٣) ٢ : ٢٨٩ .

معهم حين ترى رأيا غير ما قالوا. فلا تبالى باتفاق ولا اختلاف، وإذ كان شيوخ يونس أئمة المدرسة البصرية، كان كل اختلاف بينه وبينهم مبعدا بينه وبين هذه المدرسة، وخاصة إذا اتفق معاصره الخليل مع الشيوخ. ولكن العامل الأول الذى باعد بينه وبين المدرسة البصرية هو اختلافه مع الخليل. فقد وجد الخليل تلميذا مخلصا معجبا، دون آراءه، وفسرها، وعللها، وناصح عنها، فى كتاب. ولم يجد يونس غير ذلك التلميذ يفعل معه الأمر نفسه. ولكن نظرة التلميذ للرجلين لم تكن واحدة .

وبالرغم من ذلك لم يعدم يونس من يتقبل بعض هذه الآراء التى خالف فيها شيوخته ومعاصريه. فقد جلس بين يديه جماعة من أهل الكوفة، وجدوا فيه - بعد وفاة الخليل - أعظم النحاة، واغترفوا من علمه، وتقبلوا بعض آرائه ودافعوا عنها. وأضرب مثالا لذلك بآرائه فى إعمال حرف الجر الخذوف^(١)، والندبة^(٢)، ونون التوكيد الحفيفة^(٣). ولكننى يجب أن أعترف أنهم خالفوه فى بعض أقواله. فقد أجاز التمييز بغير، تقول: "لى عشرون غيره" ومنع ذلك الفراء^(٤). واشترط البصريون لاعمال (ما) عمل ليس ألا ينتقض النفى بها نحو ما زيد إلا قائم. أما يونس فأغفل هذا الشرط وأجاز أن تقول: ما زيد إلا قائما. ولم يوافق الكوفيون كل الموافقة، ولا خالفوه كل المخالفة، بل فصلوا الأمر. فذهبوا الى أنه إذا كان ما بعد إلا منزلا منزلة ما قبلها عملت نحو ما زيد إلا زهيرا، أما إذا كان هو الأول نفسه فمنعوا إعمالها مثل ما زيد إلا أخوك. وأجاز الفراء الإعمال أيضا إذا كان ما بعد إلا وصفا نحو ما زيد إلا قائما^(٥).

(١) الإنصاف ٣٩٣ . الأشموني ٣٠١ .

(٢) الإنصاف ٣٦٤ . الفراء ١٣٤ . الأشموني ٤٦٥ .

(٣) الإنصاف ٦٥٠ . الفراء ١٣٣ . الحصانص ١ : ٨٨ ، ٩٢ . الأشموني ٥٠٣ .

(٤) أبو حيان: منهج السالك ٢٢٠ .

(٥) أبو حيان ٦٢ .

ووجد يونس من النحاة بعد عصره الموقف نفسه، رفضوا منه بعض ما قال،
وقبلوا بعضه. علق أبو حيان^(١) على البيت :

أفيقوا بنى حرب وأهواؤنا معا وأرحامنا موصولة لم تقصب

فقال: واختلف النحويون في هذه الفتحة التي في (معا). فذهب سيبويه
والخليل الى أنها فتحة إعراب كفتحتها حالة الإضافة والكلمة ثنائية اللفظ حالة
الإفراد وحالة الإضافة .. وذهب يونس والأخفش الى أنها كفتحة تاء فتى، وأنه
حين أفردت رد إليها المحذوف وهو لام الكلمة فصار مقصورا. وقال المصنف: هو
الصحيح. يعنى مذهب يونس والأخفش .. والصحيح ما ذهب إليه سيبويه والخليل
وارتضى أبو حيان مذهب يونس فى العطف على الجرور دون إعادة جاره^(٢)،
وعدم العطف بلكن^(٣)، وبعض المسائل الأخرى^(٤).

ونخلص من دراسة ما بقى من اقوال نحوية أدلى بها يونس بن حبيب أن كثيرا
منها نطق به ردا على أسئلة وجهت إليه، فى قضية نحوية آونة، وفى بيت من الشعر
أخرى، وفى آية من القرآن الثالثة. وكان يونس فى بعض الأحيان هو الذى يطرح
القضية أو ينشد الشعر لاستطلاع رأى تلاميذه، ثم يأتى بما عنده .

وعندما نستقصى هذه الأقوال، ونصنفها، نكاد لا نجد بابا من أبواب النحو
ليس للرجل أقوال فيه. وبالرغم من ذلك يلفت النظر منا الأبواب الصرفية. فقد
كان له فيها جولات أكثر وأبرز من جولاته فى أبواب النحو. ونضع على رأى

(١) ٢٩٥ .

(٢) البحر المحيط ٢ : ١٤٧ - ٨ .

(٣) البحر المحيط ١ : ٣٢٧ . ارتشاف الضرب ٢٧٣ .

(٤) منهج السالك ١٨٦ .

الأبواب الصرفية التصغير، والنسب، والجموع، ثم صيغ الفعل .

ولذلك اعتمد عليه سيويه في بعضها اعتمادا تاما. وأعلن في أحد أبواب التصغير^(١): "وجميع ما ذكرت لك في هذا الباب وما أذكر لك في الباب الذي يليه قول يونس". فاذا وضعنا إلى جانب هذين البابين أبواب النسب التي اعتمد فيها على يونس والخليل تبين لنا قدر ما أخذه سيويه من شيخه .

ويلفت النظر في النحو أبواب النداء التي اعتمد عليه سيويه فيها وعلى الخليل. اعتمادا كبيرا، وأبواب الممنوع من الصرف، والاستثناء، والضمائر، والنعت . ولم يكن كل ما تفوه به من أقوال من ابتكاره، بل كثيرا ما روى عن شيوخه، وأكثر الرواية عن أبي عمرو منهم. ولم يبلغ شخصيته أمام أقوالهم، بل الواضح أن كل ما رواه عنهم ولم يعقب عليه كان موافقا عليه. أما ما لم يوافق عليه فلم يقتصر على روايته بل كشف عن رأيه فيه، حتى لو خالف فيه أكثر من واحد من أساتذته، بل لو خالفهم وخالف معهم بعض معاصريه.

وأدى به ذلك إلى الانفراد بمجموعة من الآراء التي لم يتابعه فيها جمهور البصريين، أو لم يجد رفيقا فيها غير بعض من جاء بعده منهم كأبي الحسن الأخفش، أو وجد رفاقا له فيها خارج بلدته، ساروا معه في بعضها الشوط كله، وفي بعضها الآخر بعض الشوط. ثم منحه الأجيال التالية واحدا أو أكثر ممن رضوا عن هذا الرأي أو ذاك من آرائه .

وكان طبيعيا من معاصريه، وخاصة من البصريين، أن يصفوه بسبب ذلك بأنه "له قياس في النحو ومذاهب ينفرد بها"^(٢) .

(١) ٢ : ١٠٩ .

(٢) ابن خلكان ٢ : ٤١٦ . السيرافي ٢٧ . البغية ٣٦٥ . ياقوت ٢٠ : ٦٤ . القفطي ٢ : ٣٦٥ .

ونحن عند ما نحاول أن نتبين منهج يونس في دراساته النحوية نجد أنه خاص في الأبواب النحوية: المسموعة عن العرب والفرضية التي كان النحاة يتخذون منها تدريباً عقلياً لتطبيق ما يرون من قواعد نحوية. قال سيويوه عن ذا، وذى، وتا، وألا، وألاء^(١): "فاذا صار اسماً عمل فيه ما عمل بـ (لا) لأنك قد حولته إلى تلك الحال كما حولت (لا). وهذا قول يونس والخليل ومن رأينا من العلماء. إلا أنك لا تجرى (ذا) اسم مؤنث لأنه مذكر، إلا فى قول عيسى فإنه كان يصرف امرأة سميتها بعمرو. وأما (ذى) فبمنزلة (فى)، و (تا) بمنزلة (لا). وأما (ألاء) فتصرفه اسم رجل وترفعه وتجره وتنصبه وتغيره كما غيرت (هيهات) لو سميت رجلاً به ..".

ونبين فى أقوال يونس أحكاماً فى القياس الذى يستنبطه، واستبانة لأبعاده .. قال سيويوه^(٢): "سألت يونس عن قوله: متى تقول أنه منطلق. فقال: إذا لم ترد الحكاية وجعلت (تقول) مثل (تظن) قلت: متى تقول أنك ذاهب. وإن أردت الحكاية قلت: متى تقول إنك ذاهب، كما أنه يجوز لك أن تحكى فتقول: متى تقول: زيد منطلق، وتقول: قال عمرو: إنه منطلق. فإن جعلت الهاء عمراً أو غيره فلا تعمل. قال: كما لا تعمل إذا قلت: قال عمرو: هو منطلق. فقال: لم تعمل ها هنا شيئاً، وإن كانت الهاء هى القائل. كما لا تعمل شيئاً إذا قلت: قال، وأظهرت هو، فقال لا تغير الكلام عن حاله قبل أن تكون فيه (قال) فيما ذكرناه ..".

وكان عندما يضع قياساً ما يطرده ويعممه، نرى ذلك فى عدة مواضع. فنحن نقول: أعطيتكم ذلك، ونسكن الميم فاذا اتصل بها ضمير آخر حر كناها وقلنا: أعطيتكمه وأعطيتكمها. ولكن يونس طرد القاعدة العامة، وطبقها على الحالة الثانية

(١) ٢ : ٤٢ .

(٢) ١ : ٤٧١ .

وقال: أعطيتكمه، وأعطيتكمها. والأول أكثر وأعرف، كما يقول سيويه^(١).

وطرد قاعدة عدم التقاء الساكنين حتى في الحالات التي أباح العرف فيها ذلك. قال سيويه^(٢): "تقول: هذا زيد بُنى عمرو، في قول أبي عمرو ويونس، لأنه لا يلتقى ساكنان. وليس بالكثير في الكلام ككثرة (ابن) في هذا الموضع".

وطرد في الممنوع من الصرف القاعدة التي تندرج تحتها الكلمات الصحيحة على الكلمات المعتلة، حتى خطاه الخليل. قال سيويه^(٣): "أما يونس فكان ينظر الى كل شيء من هذا إذا كان معرفة: كيف حال نظيره من غير المعتل معرفة، فإذا كان لا ينصرف لم ينصرف، يقول: هذه جوارى قد جاء، ومررت بجوارى قبل. وقال الخليل: هذا خطأ، لو كان من شأنهم أن يقولوا هذا في موضع الجر لكانوا خلقاء أن يلزموها الرفع والجر إذ صار عندهم بمنزلة غير المعتل في موضع الجر ..".

وقد أدى به هذا الطرد للقياس إلى مخالفة المسموع من العرب في عدة مواضع، وكان من الأسباب التي أفردته بين النحاة. علق الرماني على القياس الأخير ليونس فقال^(٤): "قياسه على المعتل أولى به، وهو جوار في الجمع، لأن الباب كله على ياء في آخر الاسم قبلها كسرة فيما لا ينصرف. وذلك يقتضى الحذف والعوض .. فلا وجه لمعصيته مع صحة إجرائه على منهاج واحد".

وبالرغم من ذلك اتفق يونس مع الخليل في كثير من الأحكام النحوية، والعلل، بل في بعض المبادئ العامة التي كان الرجلان يترسانها في قواعدهما. قال

(١) ١ : ٣٨٩ .

(٢) ٢ : ١٤٩ .

(٣) ٢ : ٥٨ . وانظر ٧٣ .

(٤) الرماني ٢١٥ .

سيبويه فى باب التصغير^(١): "العوض قول يونس والخليل" يريد التعويض عن الحروف المحذوفة للتصغير بحرف علة .

وكان المتوقع من رجل كيونس يميل إلى طرد ما يضع من قواعد ومقاييس أن ينفى ما يخرج عنها ويخطئه. ولكنه لم يكن يفعل ذلك، وكان يفرع إلى الضرورة الشعرية، فبرى أن الوزن هو الذى أجبر الشاعر على المخالفة .

فالدكتور أحمد أمين على حق حين يقول^(٢): "فهم يقولون: إن ابن أبى إسحاق الحضرمى وتلميذه عيسى بن عمر كانا أشد ميلا للقياس، وكانا لا يابهان بالشواذ، وكانا لا يتحرجان من تخطئة العرب. وكان أبو عمرو وتلميذه يونس بن حبيب البصريان أيضا على عكسهما: يعظمان قول العرب، ويتحرجان من تخطئتهم" .

ويؤدى بنا هذا إلى تصديق قول القدماء حين يقولون^(٣): "كان النحو أغلب عليه"، وإلى أن من وصفه فقال^(٤): "بارع فى النحو" قد منحه بعض حقه، ومن ناظر بينه وبين أبى زيد الأنصارى^(٥) فقال: "كان يونس أعلم من أبى زيد بالنحو" قد قَصَّرَ به.

فأقرب الأقوال إلى إيفاء الرجل حقه ما قاله ياقوت^(٦): "إمام نحاة البصرة فى عصره، ومرجع الأدباء والنحويين فى المشكلات". فقد كان فى الشطر الأول من

(١) ٢ : ١١٠ .

(٢) ضحى الاسلام ٢ : ٢٩٦ . وانظر السيرافى ٢٢ . والزبيدى ٢٨ . والأزهري ٤٠ .

(٣) أبو الطيب ٢١ . الزبيدى ٤٨ . سمط اللآلى ١٩٥ . الزهر ٢ : ٣٩٩ . القفطى ٢ : ٣٦٣ .

(٤) السيرافى ٢٧ . البغية ٢ : ٣٦٥ . القفطى ٢ : ٣٦٥ .

(٥) السيرافى ٤١ .

(٦) معجم الأدباء ٢٠ : ٦٤ .

حياته ثانی اثنین فی البصرة، لا یذكر نحوی معهما، ولا یؤخذ النحو عن غیرهما: یتفقان، ویختلفان، فتصحب الحجة الخلیل أكثر مما تصحب یونس. ولكنها لا تتخلى كل التخلي عن الأخير، ولا تتركه یردی فی الحضيض. فما أخذ علیه كان ثمرة معرفته الواسعة باللغات والنوادر: الفصیح منها والضعیف، وثمره قیاس على شیء لم یفطن إلى أنه لا یتمتع بكل صفات ما یقاس علیه، وثمره تعمیم فی مواضع لا یلیق بها إلا التخصیص. ولكن الرجل بقى علما مشرقا فی بلدته، وازداد سطوعا بعد وفاة زمیله، ثم انتقل علمه إلى الكوفة فكان واحدا من الینایع الشرة التي اعترف منها أهلها. وبقيت أقواله أو أكثرها بین یدی العلماء یعودون إليها، ویعيدون النظر فیها، فیتفقون مع معاصريه آنا، ویخالفونهم أخرى، ویرون فیها الحق المغبون .